تمهيد

يجب أن يموت الملك

لم يرث الملك لويس السادس عشر في فرنسا إمبراطورية عظيمة فحسب، بل وثورة دموية. عندما سأل: «هل كان من الممكن تجنب الثورة؟» كانت الإجابة التي تلقاها واضحة: «لقد جلبتها لنفسك». على مرّ التاريخ كان ضعف أولئك الذين في السلطة، من الرجال الذين ترددوا عندما كان الموقف يدعو إلى اتخاذ إجراءات شديدة، وحتى قاسية هو الذي سمح للهمج بتولي الحكم.

«يجب أن يموت الملك حتى يحيا الوطن la patrie»!

وبعبارة واحدة، قام ماكسيميليان روبسبيير -الذي كان لا يتورع عن أي شيء- بتقرير مصير الملك. قبل أن يتوصل المؤتمر الوطني في فرنسا إلى تصويت حاسم، تحدّى فيكتورنيان فيرغنياود، زعيم فصيل الجيروندیين، روبسبيير اليعقوبي، مخاطباً إياه: «إذا قتلتم الملك سيحاربكم العالم كله؛ وستهلك أرواح كثيرة.

ورد عليه روبسبيير الذي كانت قناعاته متحجرة: «كم هو عدد الرجال الذي يحتاجهم هذا الأمر وكم سيكلف من ضحايا؟ كم يبلغ العدد؟ واحد؟ مائة؟ ألف شخص سيفقد حياته. إذا لم تكن لديك الشجاعة لتدعم قناعاتك، فأخبرنا الآن....

اجتاحت البلاد دوامة من العنف. في البداية، كانت إرادة الله هي

أن تكون فرنسا محاطة بالظلمة، ثم تنهض في اليوم الثالث، من وسط الرماد.

العبقرية والشجاعة والإبداع هي قوى مؤثرة. لكن الشر كذلك. يتحفنا كل قرن بمجموعة مذهلة من الشخصيات، وثروة من الأبطال والأشرار الذين، يتركون بأفعالهم الاستثنائية، بصمات لا تُمحى في التاريخ. بعضهم اكتسب دوره من خلال حق ورثه. فيما وصل آخرون بشكل غير متوقع إلى مشهد الأحداث العالمي. ألهم الكثيرون الجماهير بعبارة، بينما أخافها آخرون بكلمة واحدة. فكلتاهما تحملان قوة أكثر من قوة الجيوش العظيمة التي عارضتهما، والتي كثيراً ما وجد قادتها أنفسهم في الجانب الخاسر. كان عنادهم لا يقاوم؛ وغيّروا مجرى التاريخ. لم تغيّر روحهم دولهم فحسب بل أثرت أيضاً على أجزاء كبيرة من العالم. معظمهم قاتل من أجل الحرية ومبادئ الإنسانية المشتركة في مواجهة القوى المدمرة. كان هؤلاء الرجال يحملون الوعد بعصر جديد. كسروا القوالب الكلاسيكية للمجتمع وأسسوا قوالبَ جديدة. ألهمت تضحياتهم البطولية عدد لا يحصى من الأفراد بدؤوا يتطلعون لأن يعيشوا حياة مختلفة.

بالمقابل جلب آخرون معهم الظلام والطعنات للقلوبْ وسحقوا الأجساد. وكان من ضمنهم أولئك الذين شرعوا في قتل أعدائهم الطبقيين ليس بسبب ما فعلوه ولكن بسبب ما كانوا يملكون. عاشوا وشعارهم يقول: «سوف يغفر لي التاريخ»، واستخدموا الشر كمصدر قوي لتحقيق بعض النبوءات الدينية. كان استعدادهم للقتل بلا رحمة يتطلب عملية تفكير جديدة تماماً في الخير والشر. فيما وقف آخرون بوجه الإرهاب حتى آخر لحظة وحاربوا من أجل إنقاذ الروح البشرية.

وقد انعكست عزيمة هؤلاء «الأبطال» في سماتهم الشخصية؛ لقد أنقذوا شعبهم عندما خيّم عليهم الظلام وساهموا في استعادة مستقبل بلادهم الواعد. لم يعش العديد منهم لكي يرى أحلامه وقد تحققت

بالكامل، لكن إرثهم استمر ببساطة مثل مأساة كتبها سوفوكليس أو تعقيدات مسرحية كتبها شكسبير. لم يكن هؤلاء أشخاصاً عاديين. كانت حياتهم هي ما تصنع الدراما. لقد أصبحوا محاربين مقدسين، يشقون طريقهم إلى قلب الإعصار. لقد أخطؤوا في بعض الأحيان ولكنهم كانوا على حق في أحيان أخرى. وكانوا يمثلون قدوة ساطعة للمثل التي على الآخرين الاقتداء بها. كان معظمهم لا يهتم كثيراً بمن سيضع أكاليل من الزهور على قبورهم أو يبصق حينما يأتي ذكرهم. كما أنهم لم يكونوا جميعاً شهداء ضحوا بأنفسهم، كانت تسترشد أفكارهم وأفعالهم الأساسية بقضايا نبيلة مثل الدفاع عن حقوق الإنسان ومحاربة فساد السلطة أو أن تتمتع الأمة بحرية الفكر أو تحسين الرفاهية الاجتماعية العامة.

من كان له تأثير أكبر، الأبطال أم الأوغاد؟ كان كلاهما يعتمد على الآخر فلم تؤدِ التهديدات إلّا إلى مزيد من العزيمة وولّد الإرهاب شجاعة غير متوقعة. تخيل الجميع الطيبون والأشرار، أن ما بنوه سوف يستمر إلى الأبد. لا شيء يدوم طويلاً. التاريخ مليء بالشخصيات ذات الماضي البطولي التي تتبع خطى بعضها البعض، وأحياناً بعد قرون، ولا ينتهي بهم المطاف سوى أن يكونوا أشخاصاً ملاحقين في بلدانهم.

يقضي الملوك والديكتاتوريون سنوات في تكديس البارود. لكن الأمر يستغرق يوماً واحداً فقط لإشعاله. كانت الاضطرابات دوماً، ولا تزال، ظاهرة لا يمكن هزيمتها إلّا من خلال أفكار أفضل، عن طريق الإقناع، وبتغيير الظروف التي أشعلتها. كان الانشقاق لعنة «الناس البسطاء»، ومع ذلك لم يبقَ الناس يعيشون في مثل هذه الفوضى إلى الأبد؛ فمن رحم الثورة تولد منظومة جديدة قادرة على حشد الإمكانات الهائلة للجماهير. أفضل مصدر للثورة هي النيران التي تستعر في بطون رجالها ونسائها، والوعود الفارغة لا يمكن أن تطفئ هذه النيران. يجب أن تكون هناك اضطرابات شعبية قبل قيام أصغر ثورة، ويجب أن يكون هناك أيضاً زعيم ذو شخصية جذابة يبثّ في الجماهير الروح والتصور

من أنهم يستطيعون تغيير العالم. إنه يجّمع الشرارات القابلة للاشتعال قبل أن يطلق سيلاً من الطاقة الهائلة. فيصنع الثورة!

تولد الثورة من الأمل وتستند فلسفتها على التفاؤل شكلياً. لكن الشعراء والحالمين لا يستطيعون أن يصنعوا ثورة. يجب على الأفراد، المنبوذين، والمظلومين، والمضطهدين، أن يتحالفوا حاملين سخطهم مع رجال السياسة المتحمسين. أولئك الذين يدّعون أنهم يقودون الانتفاضات لا يستطيعون الاعتراف بأنهم كانوا عفويين، كما هو حال جميع الثورات الحقيقية. إنهم يقاتلون من أجل الحق في الاختلاف. ويكافحون ضد مجموعة من الخيانات والأكاذيب، من أجل شيء يسمى «الحقيقة»؛ فقط ليكتشفوا أنه لا يوجد شيء مثل الحقيقة يجعل المجتمع يعرف كيفية التصرف بعقلانية.

الثورة هي اضطراب عظيم، يطيح بالنظام القائم عن طريق العنف. ويبدأ عهدٌ من الإرهـاب: لا يقتصر فقط على دراما المتاريس أو الرصاص، ولا الصراع المتفاقم على السلطة بين قادة النظام الجديد، ولا توتر الحرب الأهلية، بل المأساة الأبدية للكثير من أرواح الناس البسطاء الذين اجتاحتهم الأعمال البطولية التي لا تخصهم على الإطلاق. الإرهاب يلامس كل شخص بقوة هوسه، وخلال فترة الرعب، تصبح اللامبالاة السياسية مستحيلة.

الثورة تُصنع دائماً باسم الحرية. إنها موجهة ضد طغيان القلة في مواجهة حكم الأكثرية. وترافق الثورة مطالب محددة بوضوح من أجل القضاء على الفقر وتقاسم الثروة على قدم المساواة. لكن ما الذي تقوم هذه الثورات بتغييره فعلاً؟ بعض المؤسسات وبعض القوانين تتغير بالفعل. لكن لا يتمّ تغيير كل شيء، لأن الثوريين يتعلمون نسخ أسلافهم. لا يمكن للإنسان ببساطة أن يتحمل جهد فترة طويلة للعيش وفقاً للمثل العليا.

تعتمل الثورات وتتقرر في أذهان الأفراد. تكون مقدماتها هي

الكلمات، وليس السيوف. يخلق التمرد زخمه الخاص، الذي يملي استراتيجيته بالمقابل. الوسيلة التي يستخدمها القادة الثوريون لا تختلف أبداً. إنها تعبئة الجماهير لتدعم أهدافهم. هذا المفهوم قديم قدم الثورة نفسها. استخدم دانتون وروبسبيير أبناء البرجوازية في بلادهم لقتل الملك. وأطلق تروتسكي ولينين العنان للبروليتاريا ليهجموا على قيصر سيئ الحظ. وسقط الشاه لأن شعب إيران فضّل الله على ملك يكتنز المال.

هذه هي قصة الثورات الأسطورية والرجال الذين لم يهيمن على حياتهم سوى هدف واحد. إنها حكاية ملوك ورثوا الحكم، وحكاية الذين انتزعوا هذا الحق منهم، من الرجال الضعفاء الذين جلسوا على العرش والرجال الأقوياء الذين لم يتورعوا عن استخدام أحط الوسائل لاغتصاب السلطة. كلهم كانوا أبطالاً، تماماً مثلما نبذهم التاريخ جميعاً، ممزقين بين مطالب عقولهم وإيمانهم بالمثل. كان التعصب خطيئتهم الأصلية والعديد منهم ترك وراءه الدمار والموت. كيف برروا تصرفاتهم، التي جلبت معها الاضطراب والإرهاب وسفك الدماء؟ البعض فعل ذلك لغرض تشجيع زرع الأفكار الجديدة وتغيير المجتمع. وتصرف آخرون لتحقيق مكسب شخصي أو بدوافع الانتقام. آخرون، كانوا يلاحظونهم وهم على الهامش، وصفوا تصرفاتهم بالخيانة، بينما آخرون رحّبوا بها كبطولة وتضحية شخصية من أجل تقدّم الحالة الإنسانية. على النقيض من الملوك الذين كانوا يواجهونهم، والذين كانوا ضعيفين وغير قادرين على إيجاد حل صارم في اللحظة الحاسمة، استخدم الثوار الذكاء والقدرة على التحمل والحنكة؛ شريطة أن يقف شخص ما لمساعدتهم على تنحية مبادئهم الأخلاقية جانباً وسحق ضمائرهم. فقط عدد قليل من الناس يستطيعون تحقيق ذلك. لقد توجّه أولئك الذين خرجوا منتصرين إلى القضاء على «أعداء الثورة»، وإبادة المعارضة السياسية، وتحويل حريتهم إلى أداة للقمع. سرعان ما تحول الثوريون التقدميون

إلى ديكتاتوريين محافظين. أعطتهم السلطة المطلقة وهماً بأنهم يملكون شيئاً قريباً من القوة الأبديّة. من خلال اللامبالاة والإفلات من العقاب والإطراء، فإن أولئك الذين كانوا حول الدكتاتوريين جعلوهم يصدقون أنهم لا يخضعون لأي قيود أو قوانين أو أخلاق. وقد أعمتهم أضواء البهرجة وإعجاب الرأي العام، فقد هؤلاء الرجال كل شعور بالضمير وخلطوا ما بين سوء السمعة والشهرة. كما أن القوة الشخصية القائمة على الرعب هي التي قادت معظمهم إلى حتفه قبل الأوان؛ والتهمهم العنف الذي ساعدوا على خلقه.

اضطراب ثم تمرد، ثم ثورة، كانت تلك هي الحوافز لموكب من الشخصيات المأساوية التي اندفعت، مع عيون مفتوحة على مصراعيها، إلى نهاية عنيفة؛ لكن روحهم استمرت. ليس للنظام الاجتماعي والحكم الديمقراطي في عالمنا الحالي من معنى إذا لم نفهم ما حدث في الماضي. تدحرج رأس الملك نتيجة إرادة ثورية، قبل أن يقع الثوري ضحية لتمرده. الملك أو المتمرد، حدث زوالهم بسرعة محيِّرة. لأنه عندما تقع حافة سكين الذبح، فإنها تنزل بسرعة.

الفصل الأول

10 آب 1792
لقد دقت ساعة المجد

Le Jour de gloire est arrive.

لقد دقت ساعة المجد.

• نشيد المارسيليز

l'audace encore l'audace,
toujours L'audace,

الجرأة، مزيد من الجرأة، الجرأة إلى النهاية.

• جورج جاك دانتون 1792

أيقظ جرس الإنذار مواطني باريس من نومهم «Allons, enfants de la patrie» هيا يا أبناء الوطن الأم.

أعقبه صوت دوي مدفع، «Aux armes, citoyens» هيا لحمل السلاح أيها المواطنون.

حدث ذلك بعد منتصف الليل بقليل، في 10 آب 1792. كان الملك قد نام منذ فترة قصيرة بعد وجبة عشاء لذيذة. على حين غرة هزّه الانفجار. ومثل شخص يسير في نومه، تعثر الملك وهو يقفز من سريره، وكان رجلاً سميناً يرتدي ثوباً ذا لون أحمر داكن مع شعره المستعار؛

وشفاهه الغليظة ترتعد. لقد فقد السيطرة وسط تشوش النوم الذي انقطع والضوضاء المخيفة.

«لويس، ما الذي يجري؟» تساءلت الملكة وهي تلف ثوب النوم بقلق حول جسمها. فيما ظل جرس الإنذار يرن.

دخل لاروش فوكولد[1] إلى الغرفة مسرعاً. بدا الملك مذهولاً: «ما هذا؟ «Une révolte?» تمرد.

«Non, sire, c'est une revolutuon لا يا سيدي إنها ثورة!»

«أنا أحكم ومؤخرتي على سرج الحصان ومسدسي في يدي»،هكذا أعلن، هنري الرابع، أول ملك من سلالة آل بوربون في يوم تتويجه في عام 1572. كان ملكاً يشرب كؤوس بيرة أكثر من عشرة من جنوده الذين يقودهم إلى المعارك في جبهات القتال، ويقضي وقته عندما لا يكون في حرب مع إحدى عشيقاته الأربع والستين. كان هنري الرابع، ملك فرنسا ونافار، بلا شك أحد الملوك الأكثر إثارة في التاريخ الأوروبي. لم يكن مثقفاً، بل رجل أفعال، وأصبح بلاطه مزيجاً من ثكنة لسلاح الفرسان ومحلاً للبغاء. كان هنري دي نافار بلا شك الأكثر شعبية بين جميع الملوك الفرنسيين، شخص كان حلمه أن يتمكن كل واحد من أتباعه من تناول دجاجة في طبقه يوم الأحد.

كان الملك التالي في سلالة آل بوربون هو لويس الثالث عشر، وكان متزوجاً من آن النمساوية. وقد أخبره السفير البابوي أن الجنة (وكانت فرنسا حينها كاثوليكية) بحاجة إلى وريث، وأدى الملك الشاب واجباته الزوجية على أكمل وجه. ولكن عندما يتعلق الأمر بحكم مملكة، كان صغيراً جداً وغير مؤهل. كان من حسن حظه أن يلتقي مع أرماند دي بليسيس، وهو رجل معروف في التاريخ باسم الكاردينال ريشيليو. بحلول الوقت الذي توفي فيه ريشيليو في عام 1642، كان قد حوّل فرنسا

1- مستشار الملك. المترجم.

إلى أعظم مملكة في أوروبا. في 14 أيار 1643، في اليوم الذي كان فيه لويس الثالث عشر، البالغ من العمر 41 عاماً، يحتضر، طلب إحضار ابنه إلى سريره، وسأله «ماذا ستدعو نفسك يا بني؟» لم يتردد الطفل في جوابه: لويس الرابع عشر.

اختار هذا الملك الأكثر سحراً من جميع الملوك الفرنسيين، الشمس شعاراً له، وأعلن: «L'état c'est moi! أنا الدولة». وأضاف: «إذا اقتضت الضرورة لقيام الحرب، فهي عمل عادل لا يسمح به الملوك فقط، بل هو مفروض عليهم. من الخطأ الفادح الاعتقاد بأن المرء يستطيع أن يصل إلى الأهداف نفسها بوسائل أضعف». كيف سيكون تاريخ فرنسا، وربما أوروبا، مختلفاً، لو استمع لويس السادس عشر إلى مقولة سلفه اللامع.

كان عهد لويس الخامس عشر رائعاً ولكنه شهد أيضاً مشاكل كبيرة. فقد أدى أسلوب حياته الذي اتسم بتبذير فاحش، إضافة إلى حروبه غير المجدية، إلى استنزاف خزينة الدولة. ضاعت منه كندا، ووادي أوهايو، ولويزيانا واستولى عليها البريطانيون. عانت فرنسا من تدهور سريع. تفاقم الصراع في داخلها، والذي كان يغذيه جيل من الفلاسفة الفرنسيين العظام، الذين كانت أفكارهم تؤثر في العالم بأسره. أراد فولتير ومونتسكيو، اللذان كانا يميلان إلى الأفكار التحررية، أن يقبل النظام الملكي شكلاً جديداً من أشكال المجتمع. توقع الكاتب الساخر بومارشيه القيام بالقليل من الإصلاحات الاجتماعية. فيما أعرب المتطرفان، ديدرو وروسو، بصوت عالٍ عن شكوكهما في أن المجتمع سيجد بنفسه القوة لفرض الإصلاح. وتمثل ذلك في المتمردين ضد الدوغماتية والشهداء الذين سقطوا من أجل الفكر والرأي الحر، وتنبآ أن التغيير لا بدّ وأن يُفرض بنموذج من الخارج.

لم يتطلب الأمر وقتاً طويلاً. فقد نشب نزاع في أمريكا الشمالية بين المستوطنين والتاج البريطاني. انتظرت أوروبا أن تتكرر الأحداث التي جرت عبر المحيط الأطلسي. إذا كان يمكن للمواطنين في بوسطن

وفيلادلفيا أن يجدوا السعادة بتطبيق مبادئ المفكرين الفرنسيين، فلماذا يستمرون هم في الخضوع للأصنام الملكية الهرمة؟ في 1774، مات لويس الخامس عشر. كان ابنه، وهو شخص بدين عمره أكثر من ستة عشر عاماً يشبه فطيرة تفاح، هو ولي العهد، وكان متزوجاً من الأرشيدوقة ماري أنطونيت وهي من النمسا، وكانت شقراء لعوب تبلغ من العمر خمسة عشر عاماً وقد ورثا مملكة على حافة الإفلاس. كانت كلمات الملك العجوز وهو على فراش الموت: ومن بعدي سيأتي الطوفان «Après moi le déluge تنبئ بالشر».

ارتقى الولد البدين والفتاة الشقراء العرش باسم الملك لويس السادس عشر والملكة ماري أنطوانيت. كانت حياتهم مأساة شكسبيرية حقيقية. انغمس لويس في شراهته للأكل، وقضى معظم وقته كملك في ورشة خاصة خلف غرفة الاستقبال الرسمية. كان عمله المفضل هو إصلاح الساعات والأقفال. فيما كانت ماري أنطوانيت -المتقلبة المزاج- تهوى الرقص والقمار. وكانت تنادي زوجها «Le pauvre garçon» الولد المسكين تعليقاً على أدائه الضعيف -أو الافتقار إليه- في سرير الزوجية. كانت حياتها مليئة بالمغامرات العاطفية، وكان من ضمن من شملتهم الكونت فيرسن وهو رجل طويل القامة وذو شخصية غامضة، وكان برتبة عقيد في الفوج الملكي السويدي. انتشرت الشائعات حولها وهي تمرح بصخب مرتدية ملاءات الحرير السوداء، جعلت منها ميساليا العصر الحديث[2]. انتشرت رسومات فاضحة لها في الحانات. وبسبب ما اتسمت به من رعونة وإسراف، فقد أطلق عليها لقب العاهرة النمساوية Autrichienne أو l'autre chienne ، وكانت مكروهة بشدة من قبل «شعبها» لكونه ينظر إليها كمسؤولة عن معاناته، الأمر الذي قادها إلى المقصلة.

2- وهي الزوجة الثالثة للإمبراطور كلوديوس وتمثل المراة الإمبراطورة في الدولة الرومانية القديمة. وعُرفت بقوتها وتأثيرها في المجتمع. المترجم.

أول مغامرة حربية قام بها الملك كانت ضد عدو بلاده الدائم، إنكلترا، عندما قدم دعمه للمستوطنين المتمردين في فرجينيا. في عام 1779، أجبرت القوات الفرنسية -وكان تعدادها 7500 فرد تحت قيادة روشامبو والماركيز دي لافاييت البالغ من العمر تسعة عشر عاماً- الجنرال كورنواليس على الاستسلام في يوركتاون. كانت حرب الاستقلال الأمريكية قضية مكلفة حيث وصلت تكاليفها إلى مليار ليرة. عُيِّن جاك نيكر، وهو مصرفي سويسري تميز بكرشه، في منصب مدير الشؤون المالية. وأوضح نيكر بكل بساطة عند تقديم سجلاته المالية إلى أن فرنسا تواجه الإفلاس. دخلت البلاد في فترة من الكساد الاقتصادي، ولكن البلاط الملكي لم يقلِّل بأي حال من الأحوال من نمط الحياة الذي يتسم بالتبذير الفاحش. دفع هذا الوضع الطبقة البورجوازية للمطالبة بتعديل قوانين الضرائب المعمول بها حينها. بحث البلاط الملكي عن كبش فداء. فتم طرد نيكر الكفء واستبدل بتشارلز كالون غير الكفء، والذي كان مبدؤه، أن «الرجل الذي يقترض يجب أن تظهر عليه علامات الثراء» مبعث سرور الملك.

كما لو أن مشاكل لويس الزوجية لم تكن كافية، فإن قصة قلادة الماس جعلت البلاد تصل إلى نقطة الغليان. فقد عرض صائغ على الملكة قلادة ذات جمال أخاذ، لكنها كانت باهظة الثمن. ذهبت الكونتيسة دي لاموت- فالوا خلسة إلى الكاردينال لويس دي روهان، ذي الأربعة وأربعين عاماً، وكان رجلاً مسرفاً في الأناقة ويطمح أن يكون كاردينال ريشيليو آخر[3]. وتمكنت من إقناعه بشراء القلادة وتقديمها للملكة، وبهذا أقنعت روهان الساذج، أن لها بعض النفوذ. في ليلة قمرية في حديقة قصر فرساي، قابلت عاهرة ملثمة تشبه الملكة بشكل مذهل الكاردينال وقدمت له وردة. كان الكاردينال مسروراً للغاية بهذا الدليل المميز على المحبة. ووافق على أن

3- الكاردينال ريشيليو هو رجل دولة ورجل دين ونبيل فرنسي. كان وزير الملك الفرنسي لويس الثالث عشر. المترجم.

يدفع مبلغ المجوهرات، وحصل عليها وسلمها إلى الكونتيسة التي ستنقل عرضه المتواضع إلى «صديقتها الحميمة» الملكة. وفيما يشبه ما يقوم به السحرة من خداع للجمهور «ما ترونه الآن، سيختفي الآن»، أعطت الكونتيسة الماس إلى زوجها، الذي غادر إلى لندن حيث باعه هناك. انتظر الصائغ لمدة أسبوع ولم يجد غير الملكة ليطالبها بأن تدفع مبلغ المجوهرات له. كان الملك غاضباً، وتمّ تصنيف الكونتيسة دي لاموت- فالوا على أنها لصة، وتمّ منع الكاردينال دي روهان من دخول باريس. ومع ذلك، فإن الضرر قد حدث، وتلبس الخزي ماري أنطوانيت التي أصبحت تعرف باسم «la Reine Deficit» الملكة التي سببت عجزاً في الميزانية، حيث مدّت يديها إلى أموال الدولة بينما كان الناس يتضورون جوعاً في باريس. (اعتبر نابليون قضية قلادة روهان مفتاحاً للثورة).

الحدث الذي تمَّ إغفاله لكونه وقع عبر الحدود، كان بمثابة حجر الأساس الآخر لقيام الثورة الفرنسية. فقد جعلت الممارسات الاستبدادية لحاكم هولندا، الأمير وليام الخامس، التجار وسكان المدن يشعرون بالإحباط لدرجة أنهم قرروا الإطاحة به. في عام 1786، عاد إلى السلطة على ظهر الأسطول الإنكليزي. سرعان ما تمكن الفرنسيون من الاستفادة من الوضع السياسي المتوتر في هولندا. لقد صدم ماركيز دي رينيفال، الذي أرسله لويس إلى هولندا، بما اكتشفه. «لقد حقق حماس حزب باتريوت[4] تقدماً مرعباً، وإذا لم يتمّ إيقافه، فإنه يخشى أن يتسبب ذلك في حدوث انفجار ستكون له عواقب وخيمة». أدى نقص المساعدة من باريس إلى إنهاء سريع لانتفاضة باتافان الهولندية التي قام بها حزب الوطنيين. في عام 1787. ونتيجة لذلك، فرّ الثوار الهولنديون إلى فرنسا جالبين معهم أفكارهم الثورية وحماسهم الراديكالي.

في العام التالي، حلّت كارثتان أخريان بالمملكة: موسم حصاد

4- حزب الوطنيين الهولنديين وكان ذا خلفية تنويرية وتأثر بجان جاك روسو تحديداً، وبالذات أفكاره عن السيادة الشعبية والإرادة العامة. المترجم.

كارثي وحلول أبرد فصل عرفته الذاكرة الحية. ومع تراجع المخزونات الغذائية وتراجع الاقتصاد، كانت فرنسا تتجه إلى فترة من الحرمان والاستياء. كان السؤال الحاسم المطروح هو ما إذا كان الفرنسيون سيصبرون ويتحملون تلك المصاعب، كما فعلوا مرات عديدة من قبل، أم إنهم سينتفضون غضباً ضد النظام السياسي القديم. ولم يتحاشَ البلاط الملكي التفكير في هذا السؤال فحسب ولكنه لم يفعل شيئاً لتخفيف معاناة الناس، اضطر سكان باريس إلى أكل القطط والجرذان. ولقي الآلاف حتفهم خلال فصل الشتاء الرهيب في عام 1788. ووسط المجاعة التي شلّت مدنها، ودخول أوضاعها المالية في حالة من الفوضى، سارعت فرنسا خطاها لدخول عام 1789. أجبر الوضع الكارثي الملك على القيام بخطوة يائسة. فقد دعا لعقد اجتماع للمجالس العامة États Généraux في 4 أيار 1789. تألفت المجالس من 270 نبيلاً من الطبقة الأرستقراطية العالية، أو أصحاب العقارات من الدرجة الأولى، الذين لم يكونوا ملزمين بدفع ضرائب وهو حق مكتسب بالولادة، كما كان هناك 291 عضواً من رجال الدين، أو أصحاب العقارات من الدرجة الثانية، الذين استفادوا بالتساوي من وجود إعفاء لهم من الضرائب. المجموعة الأخيرة تشمل أصحاب العقارات من الدرجة الثالثة والتي تمّ اختيار نوابها البالغ عددهم 578 نائباً من أوساط طبقة البرجوازية الكبرى والصغيرة. كان على هذه المجموعة تحمل العبء المالي الكامل لفرنسا. وكانت مسألة «إلغاء الامتيازات» هي النقطة الحاسمة في جدول الأعمال؛ طرح إيمانويل سياس وكان كاهناً من رجال الدين الصغار، السؤال التالي: «ما هو العقار من الدرجة الثالثة؟ كل شيء! ما هو تمثيله على المستوى السياسي؟ لا شيء! ما الذي يطلبه؟ أن يكون شيئاً ما، كانت الأرائك في القاعة الكبرى في قصر فرساي مزدحمة: كان النبلاء يجلسون وهم متوشحون بالحرير، وإن كان مهترئاً عند الأكمام. كان رجال الدين يرتدون ملابس سوداء، موشحة بطبقة خفيفة من لون قرمزي أو أرجواني؛ أما أبناء الطبقة البورجوازية فكانوا يرتدون ملابس

بسيطة وباهتة نوعاً ما. تلقى النبلاء صدمة عندما انضم ابن عم الملك من الدرجة الأولى، دوق أورليون، والكونت غابرييل أونوريه ميرابو إلى مقاعد أصحاب العقار من الدرجة الثالثة.

لم يعمل أي شخص لإنقاذ المملكة من نفسها ببذله أقصى جهوده وبنكران ذات مثل ميرابو. كانت شخصيته رائعة. كان هو الشخص الوحيد الذي يمتلك القوة الأكثر نفوذاً التي تجعله يجرؤ على تحدي الملك. وقد هيّأ الأجواء لسلسلة من الأحداث التي قادت إلى قيام الثورة الفرنسية. كان النبلاء يكرهونه لأنه هجر طبقته. وكانت الطبقة البورجوازية لا تثق به لأنه كان من سلالة نبيلة. وكان الملك ينظر إليه كما لو كان كلباً مسعوراً «chien anragé». الجميع كان على خطأ. كان ميرابو يشعر باهتمام عميق في الحفاظ على النظام، ولكن ليس النظام القديم، أي نظام الامتيازات القديم. وظل ملكياً في داخله، لكنه لم يستطع تحمل فكرة قول نعم لملك ضعيف ويائس. وكان يشدّد مراراً وتكراراً على «أن الملكية هي المرساة الوحيدة للأمل التي يمكن أن تحافظ على هذه الأمة من التعثر فوق الصخور. لكن، وأنا متأكد مما أقول، سيقتل الملك والملكة، وسيتقاتل الناس الغاضبون على جثثهم».

كان ميرابو يشعر بالعاصفة القادمة. لم تعد السلطة في يد الطبقة الأرستقراطية التي استنزفت مواردها؛ لقد انتقلت ثروات البلاد إلى أيدي آخرين، وتغيّر كذلك توازن القوى. كان الذهب محشواً تحت وسائد نوم أفراد الطبقة البرجوازية؛ وكان هناك 26 مليون فردٍ منهم. وكانت البرجوازية الكبرى تسيطر على أموال الدولة عبر البنوك. وكانت البرجوازية الصغيرة تمتهن التجارة وتوفر البنية التحتية الاجتماعية. أرسل صناع الشعر المستعار وأصحاب مصانع الجعة أبناءهم إلى مدارس الحي اللاتيني. وتخرجوا كأطباء ومحامين ومعلمين. تمّ تجنيد أبناء الثورة من المختصين بالقانون. كان باستطاعة ممثلي البرجوازيين هؤلاء القراءة والكتابة، لكن الأهم من ذلك، كان باستطاعتهم التحدث.

كان قسم من المجتمع غائباً، وهم «الناس البسطاء». وهذه الطبقة التي لم يكن لها ممثلون، هي التي استثارها ذات مرة أولئك المحرضون عديمو الضمير من أجل أغراضهم الخاصة، والذين أظهروا كراهية شديدة للكنيسة والنبلاء، هي التي تسبّبت بالتجاوزات المشينة التي شهدتها الثورة.

في أيار 1789، كانت مقاليد السلطة بيد البرجوازية. لم تكن الطبقة الأرستقراطية ورجال الدين ينظرون إلى الأمور على هذا النحو. كان الحزم يسير في صالحهم إلى حدٍّ بعيد وظلوا معاندين. إذا كان هناك شيء واحد مؤكد، فإن الحزم لا يمكن أن ينجح إلى الأبد. في 23 حزيران 1789 كان ميزان القوى الهشّ قد اضطرب؛ فقد سدّت أبواب قاعة الاجتماعات في وجه أصحاب العقار من الدرجة الثالثة، كان الكونت ميرابو في المقدمة، وساروا كجسد واحد إلى «Sermon de Jeu de Paume» (رواق ملعب كرة الكف الوطني) حيث أعلنوا عن قسمهم الشهير بقسم ملعب كرة الكف[5]، «عدم مغادرة المبنى قبل أن يضعوا دستوراً لفرنسا». وبهذه الخطوة، أعلنوا أنفسهم الجمعية التأسيسية الوطنية التشريعية الوحيدة، أو ما سُمّي بالمؤتمر الوطني[6]. عندما سمع الملك بذلك، أرسل بسرعة مدير تشريفاته ليأمر الجمعية غير الدستورية بحلِّ نفسها. حدق الكونت ميرابو مباشرة في مبعوث الملك وردد قوله الشهير: «أخبر الذين أرسلوك بأننا هنا بإرادة الشعب، وأننا لن نغادر إلا على رؤوس الحراب!». لم يسبق للملك أن عرف كيف تبدأ الثورات، ولا كيف يمكن لسلسلة من سوء التفاهم أن ترمي بعيداً كل نصائح الاعتدال، مما يؤدي إلى تجاوزات يمكن أن تجعل الدول ترتعد. فلم يفعل الملك سوى أن هزّ كتفيه وقال: «إذا لم يريدوا المغادرة، فليكن»!

أدرك ميرابو وحده أنه إذا كان يجب إنقاذ فرنسا، فلن يتمّ ذلك سوى

5- لعبة رياضية مشهورة آنذاك في فرنسا. المترجم.

6- على اسم المؤتمر الوطني الإنكليزي.

بتشكيل نظام ملكي دستوري. (ثبت أن انهياره كان أكثر دراماتيكية). وأرسى قراره الأساس كي يتحقق هذا الحدث. وأعلن المؤتمر الوطني أن أي مندوب فيه يمتلك حصانة، وأن كل من يجرؤ على اضطهاد أي مندوب، بغض النظر عمن يعطيه الأمر، يعتبر خائناً للأمة ومذنباً بجريمة كبرى عقوبتها الإعدام.

قام ميرابو، وهو الشخص الأكثر واقعية في التعامل مع مذهب الثورة الفرنسية، يحثّ ملكه أن يقود الطريق من أجل التغيير، بدلاً من محاربته. وقال له «يا سيدي، إن فكرة الملكية نفسها لا تتعارض مع الثورة. فإذا قررت، إلغاء الامتيازات، وتحديث الدولة، فسوف تصبح جلالتك أقوى من أي وقت مضى». كيف كان من الممكن أن يكون التاريخ مختلفاً لو كان لويس قد استمع إلى ذلك النبي الحكيم. لكنه بدلاً من ذلك أمر بحماقة بأن يتوجه ثلاثين ألف جندي نحو باريس. هذا الأمر صدم مواطنيها بشكل كبير. فأقاموا المتاريس، وقام كامي دي مولان، وهو طالب قانون شديد الحماسة، يحثّ المواطنين على الاستيلاء على البنادق والبارود من أبراج الباستيل. بعد إطلاق بعض الرصاص الذي لم يؤذ أحداً، قام حراس السجن البالغ عددهم اثنين وثلاثين بإلقاء أسلحتهم. اقتحم العامة الغاضبون الأبراج، وقطعوا رأس الحاكم، وعلّقوا رأسه على رمح. اجتاح العنف الشوارع في ذلك اليوم، الرابع عشر من تموز يوليو 1789. أما الباقي فقد تكفل به التاريخ. مع سقوط الباستيل، رمز النظام القديم، انتهى نظام الامتيازات الملكية القديم[7]. باتت باريس في قبضة الفوضى: توجهت العصابات المسلحة إلى مساكن الأثرياء وأحرقتها؛ نُهِبَت الكنائس وحطمت رؤوس التماثيل الدينية؛ قام الأقنان وهم يحملون المعازق والمناجل بذبح النبلاء وأحرقوا قصورهم. هرب كونت منطقة أرتوا

7- إن الحدث الذي كان مشابهاً في رمزيته لسقوط الباستيل هو سقوط جدار برلين، وقد حدث بعد 200 عام بالضبط، في عام 1989.

(الذي سيصبح في المستقبل تشارلز العاشر) من فرنسا، تبعه دوق دي بيري، ودوق أنغوليم، ودوق كوندي، ودوق إنغين، وعشرون ألف أرستقراطي آخر.

بعد ستة أشهر، شهد يوم السادس والعشرين من آب 1789 الإنجاز البارز للثورة: إعلان حقوق الإنسان، الذي يستند في صياغته إلى حدّ كبير على وثيقة فيرجينيا للحقوق. عندما توجهت 5000 امرأة نحو قصر فرساي بعد شهرين، يطالبن بالخبز، فكان جواب ماري أنطوانيت: «لماذا لا يأكلن البريوش (نوع من أنواع الكعك)؟» ولتهدئة أولئك الغوغاء، وافق الملك على مطلب النساء بمرافقتهن. والعودة إلى باريس. ومن الناحية العملية، أصبح الملك فعلاً أسيراً لدى الثورة. وأصبحت سلطته من الآن فصاعداً، مقيّدة بما كان الناس على استعداد لمنحه إياه.

في هذا المنعطف الحرج، ظهر رجل على الساحة السياسية قام بإثارة «غضب الناس البسطاء». كان جان بول مارا طبيباً سويسرياً وصحفياً غير متفرغ. «كان مثل جرذ القبو المسعور، الذي يظهر في وضح النهار عندما تجف المجاري ثم يلتهم كل شيء في طريقه، كان الممثل النموذجي للرعاع القادمين من الحانات وبيوت الدعارة، الذين كانوا يتواجدون دائماً متخفين، ويعيشون على السرقة والقتل». هكذا وصف أحد الثوريين الألمان «l'ami du people» صديق الشعب. في أول طبعة للصحيفة التي تحمل الاسم نفسه، حدّد مارا الخط العام للصحيفة من خلال شنّه هجوماً لاذعاً على لويس السادس عشر: «هو ضعيف بلا روح، لا يستحق أن يجلس على العرش، وهو مثل دوارة الرياح حيث كانت تتلاعب به محظياته ببراعة، طاغية مدفوع إلى الجريمة. كان سلوكه دوماً شبكة من الغرابة والرعب، وهو مستبد يغسل يديه بدماء الناس، وهو وحش يتآمر ضد الحرية العامة، ويجب اعتباره مجرماً في نظر العدالة». أثارت مثل هذه العبارات مشاعر «الناس البسطاء»، العمال

اليدويين الذين كانوا يكدّون من أجل أسيادهم، بل وكانوا يسكنون إلى جانبهم. لم تكن المدن تنقسم إلى أحياء ثرية وفقيرة. كان الناس من جميع الطبقات يعيشون معاً في المنازل نفسها في الممرات الضيقة نفسها. ووفقاً لمنطقتهم الإدارية (المقاطعة)، تمّ تجميعهم في أحياء، ولكن لم يكن يشبهون البروليتاريا في العصر الصناعي.

توفي ميرابو في 2 نيسان 1791: «إنني أترككم مع فكرة ميؤوس منها وقاسية. ما لم توقفوا هذه التجاوزات، سوف يؤدي الأمر إلى مأساة، سيتحول القتل العادل إلى مجزرة، وسيتحول سقوط الملك إلى سقوط للبلد». مع وفاة ميرابو، فقد الملك كل أمل في استعادة عرشه. قرر الهروب. في منتصف ليلة 20 حزيران 1791، قاد رجل يرتدي عباءة طويلة امرأةً تحمل فتاة صغيرة واثنين من النساء إلى إحدى العربات. كان هناك حوذي طويل القامة يقف جانباً لمساعدتهم للدخول إلى العربة. كان الرجل هو لويس، والمرأة هي ماري-أنطوانيت، وكانت «الفتاة» دوفين لويس-تشارلز، أما الحوذي فقد كان عشيق ماري أنطوانيت، الكونت فيرسن السويدي. كانت تنتظرهم إحدى عربات المسافرين في ضواحي باريس؛ وكانت مطلية باللون الأصفر الفاتح وتحمل شعار الملك! بعد ساعات فقط من اجتيازهم الحدود، اتخذ «فيرسن» منعطفاً خاطئاً واضطر إلى التراجع؛ سألوا صبياً من السكان المحليين عن الاتجاهات، ووضع الملك قطعة نقود معدنية في يد الصبي، وكانت قطعة ذهبية من زمن لويس الرابع عشر! سارع الصبي لتنبيه اللجنة الثورية المحلية.

عند جسر بلدة فارين وصل موكب الهروب الملكي إلى نهايته. «قف، من هناك؟».

ردت الملكة بسرعة: «مدام كورف، في طريقها إلى فرانكفورت».

حينها قال مسيو سوسيه، نائب عمدة مدينة فارين: «هناك ما يكفي من الصعوبات في الطريق تجعلني أطلب منك ترك العربة. لذا أعرض عليك المبيت في منزلي هذه الليلة».

كان زعيم المجموعة المسلحة هو مدير مكتب البريد المحلي، درويت الذي خاطبها قائلاً: «وبماذا تفسرين وجود كتيبة خاصة من الفرسان تنتظركم على الجانب الآخر من النهر؟ يجب أن تخرجوا على الفور، أو سنقوم بإطلاق النار عليكم».

خرجت الملكة من العربة، ثم تبعها الملك، «أنت الملك!» صرخ درويت «أنا أعرفك !».

«إذا كنت تعرفني، فلماذا لا تبدي الاحترام اللازم لسيدك؟». وبدلاً من إظهار الاحترام، حُبِسَ الملك في غرفة في منزل مجاور.

أرسل سوسيه دعوة عاجلة إلى القرى المجاورة: «تعالوا مع بنادقكم، لقد أمسكنا بالملك».

بدأت ماري أنطوانيت تتوسل لزوجة رئيس البلدية: «مدام سوسيه، فكري بما أشعر به تجاه الملك وأولادي. ستدين لك ملكة فرنسا بامتنانها الأبدي».

«أنت تفكرين في الملك وانا أفكر في السيد سوسيه».

أُعيدت العائلة المالكة إلى باريس. كانت عربتهم ترجم بالحجارة على طول الطريق، وأثناء عودتهم المخزية، رأى لويس تمثاله يتدلي من عمود الإنارة. كان هذا كافياً لماري أنطوانيت للتعبير عن مخاوفها من أن شخصاً ما سيخرج ويقتلهم. كتب لامارتين عن ذلك «كان الهروب هو الطريق إما إلى العار أو إلى الجلاد». لم تكن هناك سوى طريقة واحدة للفرار من العرش، وهي التنازل، ولم يتخلَّ الملك لويس عن العرش. من الآن فصاعداً، لم يعد سوى خائنٍ للثورة ولعبة في أيدي قادتها.

في 17 تموز 1791، تجمعت مجموعة من الجمهوريين الراديكاليين، بقيادة مارا، في ساحة دي مارس Champs de Mars[8] الذي أعلن طرد

8- حيث يوجد الآن برج إيفل.

الملك، لكن توقيته كان خاطئاً. لم تكن فرنسا مستعدة بعد لتصبح جمهورية. أمر الجنرال لافاييت الحرس الوطني بإطلاق النار على الحشد. قُتل خمسون شخصاً. وانقسم المؤتمر الوطني إلى معسكرين: حيث بات الجيروندیون يمثلون الطبقة البورجوازية الميسرة، وأصبح اليعاقبة المتطرفون يمثلون «الناس البسطاء». أجبر كلا الطرفين الملك على أن يتعهد بضمان الدستور الجديد. أصبح لويس الآن مجرد مفوضٍ بسيطٍ من البرلمان، وكان ذلك خطأ فادحاً جعل البرجوازية تندم عليه. كان شخص الملك هو الأداة الدستورية الوحيدة التي يمكن أن تصمد أمام المتطرفين، والآن فتحت البرجوازية الباب أمام المجانين المسعورين الراغبين في استخدام وحشية الغوغاء. ودخلت مجموعة جديدة من الشخصيات إلى مسرح الأحداث.

كانت السنة التالية هي سنة الحسم. في 20 نيسان، أعلنت فرنسا الحرب على إمبراطورية آل هابسبورغ، وفي شهر تموز، اقتحم دوق برونزويك فرنسا على رأس جيش جرّار قوامه 75 ألف جندي، وأعلن عزمه على إعادة تنصيب الملك الفرنسي في منصبه الشرعي. بهذا الأمر تحدّد مصير الملك. وعلى الرغم من أن العملية استغرقت ستة أشهر أخرى، إلا أنها كانت بلا رجعة. قام جورج جاك دانتون، عضو نادي اليعاقبة، بتخطيط الهجوم بدقة شديدة. كان دانتون، دون أدنى شك، الأكثر ذكاءً من بين جميع الخطباء الثوريين، وقد جاء من بلدة فرنسية صغيرة. درس القانون وعيِّن محامياً في بلاط الملك. لم يشارك في أحداث تموز 1789، ولكنه أصبح نشطاً في عام 1791 عندما أسس نادي الكورديلز، الذي مهد السبيل لتأسيس حزب اليعاقبة. في أعقاب أحداث آب 1792، عُيّن وزيراً للعدل، وعلى هذا النحو، جعل المحكمة الثورية، محكمة ملطخة بالدماء لتصبح الذراع المؤسس للإرهاب. مع تستر دانتون على الجرائم، بدأت المشاكل. وعلى مدار عدة أيام، كانت الشائعات الهستيرية تنتشر بأن الآلاف من القوات الموالية للملك في

طريقها إلى المدينة وأن اللجان الثورية في الأحياء ستوفر لكل مواطن «citoyen» سلاحاً للقتال حتى الموت «Liberté ou la mort!» الحرية أو الموت! ظلت صافرة الإنذار تطلق صفيرها، انضمت إليها أجراس الكنائس الستين في جميع أنحاء المدينة، «Aux armes citoyens!. أيها المواطنون، احملوا السلاح!» من الشارع، جاءت أصوات مختلفة، تحثّ كل رجل وامرأة صحيحي الجسد على الانضمام لهم ومقاومة المؤامرة الشريرة التي يحوكها الملك، والملكة الفاجرة. «Formez les bataillons!» شكلوا كتائبكم! لقد تعهد قادة الثورة بالقتال من حي إلى آخر، ومن حارة إلى حارة، ومن بيت إلى آخر. «Aux barricades» إلى المتاريس! تدفقت الجماهير إلى وسط المدينة. بدأ أحد الأشخاص في الحشد يغني أول جملة من أغنية ثورية مؤلفة حديثاً «Allons, enfants de la patrie, le jour de la gloire est arrivée». انهضوا، يا أبناء الوطن الأم، فقد دقت ساعة المجد ...

أخيراً، قام المتطرفون بتوجيه مهاراتهم المنضبطة نحو تحقيق أهدافهم الثورية. كانت عصابات اليعاقبة المتطرفة قد تغلبت بالفعل على الحراس في «Hôtel de Ville» (دار البلدية) وأنشأت مجموعة (كومونة) «التمرد». كانت خطتهم هي الإطاحة بالمؤتمر الوطني والاستيلاء على السلطة، لكن كان عليهم أولاً التخلي عن الملك الدستوري. عندما وقع انقلاب «coup d'état» اليعاقبة في دار البلدية، كان الرجل الذي شغل جلّ بالهم نائماً في سريره في قصر التويلري، جاهلاً بما يجري. وكانت الملكة، ووصيفاتها، وصديقتها الحميمة، الأميرة دي لامبال، لم يزلن مستيقظات، ويلعبن الورق. كانت مداخل القصر الكبير مظلمة وصامتة. ولم يكن هناك سوى وميض عرضي من إحدى الشمعات يدلّل على وجود العديد من النبلاء القدامى الذين يقومون بدوريات في الممرات، غير مسلحين بأكثر من سيوف الاستعراضات العسكرية، وكانت بالكاد فعالة ضد الحراب والمطارد (سلاح قديم) التي كانت في أيدي الغوغاء

المسعورين. وتمركز في الخارج 900 من المرتزقة السويسريين للدفاع عن حدائق قصر التويلري.

عندما انتشر الخبر بأن «شيئاً ما سيحدث للملك»، وأنه ستتم تصفية الحسابات، أغلق سكان المدينة الخائفون أبوابهم وأقفلوا مصاريعها. وبحلول الصباح، كانت الممرات ممتلئة برجال الكومونات الذين يقودهم مارا، وبينما كان المؤتمر الوطني منعقداً وسط ارتباك تام في أكاديمية للفروسية (Manége) تقع بالقرب من قصر التويلري، وكانت عبارة عن سلسلة من المباني محاطة بسياج عال من الحديد المطاوع. كان يقف الحرس السويسري ببذلاته الحمراء بهدوء على الدرج الضخم الذي يؤدي إلى القصر. وكانت مواجهتهم «هي الهدف الأساس للثورة»، تقدم أكثر من 500 شخص مع مدفع برونزي واحد. وسارع أفراد الحرس الوطني إلى تعزيز القوات السويسرية، ثم غيّروا مكانهم فجأة، ساحبين معهم اثنتي عشرة قطعة من المدفعية. شجع ذلك الغوغاء على الاندفاع نحو الشبكة الحديدية في الوقت ذاته الذي كانت العائلة المالكة وخدمها تخطو خارج القصر. هتف الحشد «الموت للطاغية» وألقوا الحجارة باتجاههم. لوّح لهم الملك، واندفع الغوغاء إلى الأمام، وبسبب الضغط انسحق الناس أمام السياج قبل أن يفسحوا المجال لموجات من الغوغاء (sans-culottes)[9] وسلاح المطارد يتأرجح وسط أيديهم وهم يصدرون أصواتاً، قام بعض الحراس السويسريين بإخراج الملك وحاشيته للبحث عن ملاذ لهم وسط نواب المؤتمر الوطني المرعوبين. أصدر الملك الأمر إلى حراسه السويسريين للدفاع عن المبنى، وهو الأمر الذي أدى إلى حدوث المأساة. أمر الكولونيل السويسري «دورل» جنود سريته بصدّ الحشود، ورفع الجنود السويسريون بنادقهم. صرخت امرأة، «Vive la

9- المصطلح يعني حرفياً «الذين بدون سروال»، إشارة إلى السراويل الحريرية حتى الركبة (أو كيلوتس culottes) التي كان يرتديها الأرستقراطيون ولم يكن يرتديها عامة الشعب.

!république عاشت الجمهورية!» اندفع الغوغاء إلى الأمام وأمسكوا بخمسة جنود سويسريين وجرّوهم ونزعوا عنهم أسلحتهم وضربوهم حتى الموت. صرخ قائدا السرية السويسرية دي كاستيلبورغ وزوسلر: أطلقوا النار «!Feuer». مزقت المئات من رصاصات البنادق صفوف الحشد المتراصة بإحكام، وتفرقت. كان التأثير شديداً. كانت الجثث تتكدس أمام الحراس السويسريين وبقية أعضاء الكومونة الذين هربوا من الفوضى. قامت فصائل منشقة من الحرس الوطني بإطلاق نيران مدافعها نحو الحراس السويسريين، لكن ما نتج عن عملها كان مروعاً. لقد أخطؤوا تشكيلات الحراس السويسريين واخترقت قذائفهم الفتاكة أوساط الجماهير الفارة المجنونة، مما زاد من الذعر والارتباك العام. واصل السويسريون إطلاق نيرانهم القاتلة، وجلبت سرية الكونت ساليس إلى الأمام مدفعاً كان يطلق النار في أعقاب من هرب من الغوغاء (sans-culottes). أصبح الحشد في قبضة تبادل إطلاق نار قاتل؛ توفي المئات من أفراده في الدقائق القليلة التالية، وقد تمزقت أجسامهم بسبب الوابل الكثيف من قنابل المدفع وشظاياها. باتت الساحة الآن خالية من الغوغاء، وقد أصلح السويسريون خطوطهم وجعلوها جاهزة لتعقب الفارين.

كان الملك وأفراد أسرته يجلسون في مبنى أكاديمية الفروسية (Manége)، عندما أعلن النائب في المؤتمر الوطني شابو أن وجود الملكة هناك غير دستوري وأنه يجب طردها منه. كانت العائلة المالكة قد اقتيدت إلى غرفة جانبية. وعندما احتُجِزوا في هذه المساحة الصغيرة، كانت أصوات دوي المدافع أكثر ترويعاً لهم، وكان الملك يرتعد عندما يسمع أصوات المدافع والبنادق. وكان ينوح قائلاً: «أطفالنا سيقتلون. يجب أن نضع حداً لهذا». توصل الملك، وقد كان جسمه يرتجف بالكامل، إلى أكثر القرارات كارثية في حياته. وكما تنبأ ميرابو، كان لويس حاكماً عديم الحصافة، لم يسبق له أن تعلَّم الحكمة التي كان يقولها سلفه اللامع، لويس الرابع عشر «الحرب، إذا اقتضت الضرورة لها، هي عمل

عادل لا يسمح به الملوك فقط، بل يأمرون به. من الخطأ الفادح الاعتقاد بأنه يمكن للمرء أن يصل إلى الأهداف نفسها بوسائل أضعف». ومهما كان حجم السلطة التي بقيت مع الملك، فإنه قد حكم على نفسه بالموت في اللحظة التي طلب فيها من السيد دي هيرفيل أن ينقل أمره إلى عقيد الحرس السويسري الخاص به، بأن يُلقي أفراد الحرس أسلحتهم. وهذا ما ضاعف من المأساة. ورفض العقيد دورلر تصديق أن الملك يمكن أن يصدر مثل هذا الأمر المجنون. وهرع إلى أكاديمية الفروسية Manége لمواجهة لويس. كانا من العمر نفسه، ولكن مع ذلك لم يكن هناك ثمة شيء يدعو إلى المقارنة. تمالك هذا السويسري نفسه بشيء من التعجرف، وقد أخاف الملك ذلك التحديق الوقح من عينيه المثقلتي الجفون. وخاطبه قائلاً: «جلالة الملك، إنه يومنا. الرعاع يهربون، يجب أن نطاردهم بلا هوادة!».

توقف عقل لويس عن التفكير، وجمد وجهه بصمت. بدا عليه ذلك الخوف القديم المألوف فيه. أطبق قبضات يده لمنع نفسه من الاهتزاز وحاول التحدث، ولكن لم يصدر منه أي صوت. من الواضح أن دوي المدافع قد أصابه بالجنون.

«سيدي، هل سنلاحق الرعاع؟» قيلت هذه الكلمات بصوت بارد.

عاش الملك لويس في مأزق أولئك الذين لا يستطيعون اتخاذ قرار بمجرد أن يصبح الضغط لا يطاق. لقد قال لنفسه إن الحياة في الشارع، مع مآسيها الواضحة بشكل كبير، كانت أكثر واقعية، وأكثر إنسانية، وأكثر رحمة من الحياة التي عرفها هو نفسه في فرساي. كان اقتحام قصر التويلري مثيراً للشفقة، لأن ثمنه كان هلاك الآلاف من الأرواح المحطمة. مرت من أمامه صورة باريس، وشعبها، وواقع حياتها. حاول أن يسيطر على نفسه، وحاول أن يركز تفكيره، وأن يمنح نفسه بضع لحظات من الهدوء.

قطع صوت حلم يقظته: «إنها مسألة دقائق، وربما ثوانٍ. يجب أن

أحصل على ردك». حدق الملك والعقيد أحدهما في وجه الآخر. يجب عدم تجاهل هذا التحدي. يجب أن تتصرف جلالتك!

أصبح لزاماً على الملك الآن أن يأخذ الأمر على عاتقه ويقدم دليلاً على أنه أكثر من كونه مصلحاً ماهراً للساعات. وقد خانته قوة الإرادة في أكثر لحظة حاسمة في حياته،. وقال: «إذا كان ثمن العظمة هو الخطأ في كل مرة، فأنا عاجز عن المهمة». في تلك اللحظة أظهر أنه لا يستحق أن يكون ملكاً. لقد أمضى معظم حياته ينام، ويأكل، ويشرب، ويتبول، وينكش أنفه، ويصلح الساعات. كان مجرد واجهة كارتونية لملك، لم يكن تفكيره ناشطاً، بل كان خاملاً. كانت الدقائق تمضي، ومعها يمضي، الحكم الملكي.

صاح العقيد غاضباً: «Par Dieu, léve toi et agis comme un roi!» انهض وتصرف مثل ملك!».

امتقع وجه الملك وأصبح شاحباً. غطاه بيديه وبدأ ينوح: «هل يجب أن ينتهي كل شيء بالدم؟» ثم ضاعت الفرصة. هل توقف الأمر على مسيرة التاريخ التي لا يمكن وقفها أم على ضعف رجل واحد؟ وفي مواجهة تهديد التمرد والموت، فقد فشل في التصرف. قُتل بضع مئات، لكن كان بإمكانه إنقاذ مملكته. بدلاً من ذلك، قاد الآلاف إلى مقصلة الثورة. «رغبتنا أن تلقوا سلاحكم. لا نريد أن يهلك الرجال الشجعان».

«إذاً، أنا أصرّ على أن يكون أمرك كتابة».

فكتب الملك: «نأمر حرسنا السويسري أن يلقوا أسلحتهم على الفور وينسحبوا إلى ثكناتهم». (توقيع) لويس.

انتزع العقيد الأمر من يد الملك المرتجفة ونظر إليه باشمئزاز: «لقد وقعت للتو على شهادة وفاة جنودي السويسريين الشجعان ونظامك الملكي».

كان السويسريون جنوداً منضبطين للغاية ولم يكن أمامهم سوى

الامتثال للأوامر وجمع أسلحتهم. ما إن ألقوا أسلحتهم حتى باشر الغوغاء المتعطشين للدماء بذبح المرتزقة الذين أصبحوا بلا حول ولا قوة. وكان مجموع ضحاياهم، 786 جندياً سويسرياً، بمن فيهم ستة وعشرون ضابطاً، وقد دفعوا حياتهم بسبب موقف الملك الضعيف[10]. عندما مات جميع السويسريين، هرع الغوغاء إلى مقر الملك لمواصلة عمليات الذبح. لم يبق نبيل، أو بستاني، أو سائس للخيل إلا وقد حُزّت رقبته أو ألقي به من النوافذ. أُجبرت إحدى النساء التي فرت من الرعب، وكانت تدعى مدام كامبان، على ترديد شعار «الأمة باقية إلى الأبد». تمت ملاحقة سيدات البلاط الأخريات في العراء، وجُردن من ملابسهن ونُزعت أحشاؤهن. كانت رؤوسهن مرفوعة على الرماح، وتمّ استعراض رؤوسهن بفخر في الشوارع. تم احتجاز القلة التي تمكنت من الفرار عبر ممر سري في شارع دو لاشيلي. تعرض الرجال للضرب بالهراوات أو ثقب أجسامهم بالأسياخ، وتمّ اغتصاب النساء قبل قتلهن بوحشية. وبأمر من اليعاقبة، تمّ ترك الجثث متعفنة لعدة أيام لجعل الباريسيين يخشون قوة المتطرفين.

عندما وصلت أخبار المجازر إلى المؤتمر الوطني، أسكت اليعاقبة المتطرفون ألسنة الجيروندبين المعتدلة. ضمت ماري أنطوانيت ابنها إلى صدرها وانفجرت بالبكاء. جلس الملك في أحد مقاعد النواب، وهو يتفرج بلا مبالاة على صراخ النواب. كان كل ما قاله: «ما تفعلونه هنا ليس دستورياً أبداً». لم يعد يستمع له أحد بعد الآن. لم يعد يفكر المتمردون سوى باستخدام الأكاذيب والخداع والإرهاب لإيصال الحشود إلى مثل هذه الحالة من الهيجان لدرجة أن أتباعهم من الغوغاء sans-culottes كانوا على استعداد للاندفاع وسط رصاص البنادق من أجل ذبح النبلاء المكروهين ومن ثم استعراض رؤوسهم وهي معلقة على الرماح.. «لو اتخذ لويس موقفاً حازماً وخرج على حصانه ليقود

10- يوجد في مدينة لوسرن السويسرية، نصب تذكاري يخلد موقفهم البطولي، وهو عبارة عن أسد عملاق نائم مع رمح إلى جانبه، وقد احتضن الشعار الملكي.

العمليات القتالية في ذلك اليوم في قصر التويلري، لكان النصر سيكون حليفه بالتأكيد». كان كاتب هذا التعليق هو نابليون.

في 21 أيلول 1792، أصبح لويس السادس عشر أول ملك لفرنسا يعزله رعاياه. قررت الجمعية الوطنية إلغاء الملكية وأسست الجمهورية الأولى وكان شعارها: Liberté, Égalité, Fraternité الحرية والمساواة والإخاء. بعد بضعة أسابيع، حُجِزت العائلة المالكة في الحصن المشؤوم، وهو زنزانة مربعة بناها قبل 500 سنة فرسان الهيكل[11]. كان الرجل الأول الذي التقى بهم هو أنطوان سيمون، وكان إسكافياً بالمهنة وثورياً بالموهبة، وهو الذي قادهم نحو «حيهم الملكي» الذي كان يحوي هيكلاً لسرير نوم واحد مليء بالبراغيث. وضعت ماري أنطوانيت طفلها الصغير – وريث العرش الذي لم يعد موجوداً – في السرير ونامت هي نفسها على الأرض. تحسن الوضع بمجرد السماح للأسرة بشراء بعض الأثاث الأساسي. سمح لهم بالسير مرة واحدة في اليوم في حديقة صغيرة حيث كان للحراس فرصة واسعة للحديث بصوت عال عن مصيرهم. وهكذا اكتشف الملك أن أحد أنصاره المخلصين، رئيس تحرير جريدة Gazette de Paris (الصحيفة الرسمية لباريس)، قد تمّ إعدامه بالمقصلة.

أدى زوال الملكية الدستورية إلى نشوء ديكتاتورية الكومونات[12]. استخدم، جان بول مارا، ذو النزعة الشريرة ونبي المساواة (égalité)، الغوغاء أداة في يده لجعل كبار أفراد الأرستقراطية والبرجوازية الحاكمة يدفعون الثمن السياسي لثورة دموية. لقد كان يخطط لتحقيق السيطرة النهائية من خلال إقامة أول «ديكتاتورية للبروليتاريا» في العالم، بأي وسيلة ضرورية. لكن دانتون سبقه عندما تولى مجلس مدينة باريس. وعندما رفض قائد الميليشيات ماندیت إطاعة أي

11- وهم أقوى التنظيمات العسكرية التي تعتنق الفكر المسيحي الغربي، وأكثرها ثراءً ونفوذاً وأحد أبرز ممثلي الاقتصاد المسيحي. ودام نشاطهم قرابة قرنين من الزمان في العصور الوسطى. المترجم.

12- تقسيمات إدارية موحدة على مستوى فرنسا كلها تمّ إنشائها إبان الثورة. المترجم.

شخص غير الزعماء المنتخبين للبلدية، أطلق رجال دانتون النار عليه وألقوا بجثته في نهر السين. بهذا التصرف الانتهازي، فتح دانتون لنفسه الطريق نحو السلطة الدكتاتورية، وأصبح زعيماً بلا منازع للمجلس الثوري التنفيذي. كان خطؤه الوحيد أنه على النقيض من روبسبيير، الذي حرص على قتل منافسيه، ظل دانتون مخلصاً لمؤيديه ووزع المناصب الدسمة على أتباعه.

تجاوزت الأحداث مسار الثورة. اجتاحت الشمال الغربي ثورة مفتوحة. شهدت مدينة مرسيليا احتجاجات على حكم باريس. أعدم سكان مدينة ليونز أعضاء مجلس المدينة الثوري؛ توجه مواطنو مدينة بوردو في مسيرة نحو باريس. وتمّ تسليم ميناء مدينة تولون الرئيس للبريطانيين دون إطلاق رصاصة واحدة. وجاء الخطر الأكبر من دوق برونزويك الذي تقدم إلى العاصمة يصحبة جيش بروسيا القوي. وجدت فرنسا نفسها على حافة الهاوية. لقد أدى انفجار الحماسة القومية إلى تركيز الإرادة الحازمة للأمة بأكملها على الاندفاع للدفاع عن الوطن Patrie. أخذ جورج دانتون على عاتقه إثارة المشاعر إلى أعلى درجة وأزال حواجز ضبط النفس مع شعاره الخالد: «L'audace, encore l'audace, toujours l'audace»، الجرأة! المزيد من الجرأة، الجرأة إلى الأبد! «ومثل جان دارك منح أمته l'espérance» الأمل. ألّف روجيه دي ليزلي نشيداً لمتطوعي مدينة مارسيليا الذين توجهوا إلى الجبهة. وبذلك أصبح النشيد معروفاً باسم المارسيليز «La Marseillaise». ومن أجل إنقاذ الجمهورية، لم يكن دانتون كارهاً للقيام بمجازر. وإذا كان هناك من حاجة إلى دليل، فإن تواطؤه في مذابح أيلول أثبت ذلك.

جاءت الدعوة إلى مذابح أيلول من خلال مقال نُشر في صحيفة أصدقاء الشعب «L'ami du peuple». التي كان يحررها جان بول مارا في 2 أيلول 1792، تمّ إيقاف ثلاث عربات كان يستقلها أربعة وعشرون

من رجال الدين عند دير سان جيرمان دي بري[13]. كانت تحيط بهم عصابة من الغوغاء (Les Sans – Culottes) وهم مجموعة من الهمج الذين كانوا ينوون ارتكاب جريمة قتل. قبل الثورة، كان بعضهم قبل قيام الثورة من رعايا الكاهن الزاهد الذي قفز حينها من العربة لتهدئة هؤلاء الهمج. ولم يتم تدوين ما قاله[14]. قام أحد مرافقي العربة بسحب سيفه وضرب به الكاهن. سحب الغوغاء الأشخاص الآخرين الموجودين في العربات وداسوا فوقهم حتى الموت. تملكهم الهيجان. في الدير الكرملي القريب كان 150 من رجال الدين ينتظرون نتائج محاكمتهم. تسلق الرعاع السياج المغطى بالكروم وبدؤوا بذبحهم بالهراوات والحراب والفؤوس. تناثرت جثث الكهنة وجماجمهم المحطمة في القاعات والمهاجع، وحتى داخل مصلى الكنيسة[15]. وكما يحدث عادة عندما يهتاج حشد من الناس، هناك دائماً من يصرخ بصوت أعلى، وبالتالي يعين نفسه قائداً لهم. قام شخص شرير، هو المواطن مايلارد، بنصب طاولة في الردهة وترأس محكمة فورية. جُرْجِر كل كاهن على قيد الحياة أمام هذا القاضي، وتمت إدانته، وذُبح بأكثر الطرق همجية. مات 119 قسيساً بهذه الطريقة وألقيت جثثهم في بئر قريب[16].

عادت الحشود من الدير الكرملي إلى دير سان جيرمان، ونهبت مكتبته الضخمة وألقت بموجوداتها من الكتب التي لا تقدّر بثمن وسط نار عملاقة أضرمت في الهواء الطلق[17]، لأنها كانت تعتبر التعلم بمثابة الجذر وراء ما تعانيه من بؤس. تمّ إحضار ثلاث مائة سجين آخر أمام المحكمة التي نصبها المواطن مايلارد. اختلطت صرخات ضحاياه مع

13- يمثل اليوم مركز الحياة الفنية الباريسية.

14- تذكر بعض الكتب أنه صرخ: «رحمتك أيها السماء».

15- من مذكرات آبي سيزار، الناجي الوحيد المعروف.

16- في عام 1860، خلال ترميم الدير، تمّ اكتشاف هياكلهم العظمية.

17- حدثت ليلة البلور أثناء حكم هتلر من عام 1938، وكانت طقوس حرق الكتب من قبل النازيين، تقليد باهت لها.

قهقهات الغوغاء. هتفت زوجاتهم الشريرات لتحية عمليات الذبح: «...Vasy, coupe sa gorge، هيا اقطع عنقه». أصبحت الإيحاءات الجنسية للمذبحة صريحة عندما اقتحم الغوغاء المنازل على طول شارع السين واغتصبوا النساء البرجوازيات[18]. وحدثت مشاهد مماثلة داخل قصر كونسييرجيري وسجن شاتليه. في تلك الليلة، قُتل أكثر من ألف إنسان بوحشية. كانت ضحيتهم الأكثر شهرةً الأميرة الجميلة دو لومبال، والتي اقتيدت من زنزانتها، وهي مربوطة إلى أحد المقاعد، واعترفت أنها عشيقة الملكة. ثم قام العشرات من الرجال الأشرار باغتصابها وأجبروها على المشي حافية القدمين عبر الجثث المشوهة في الفناء، قبل أن يقوم الغوغاء. «Sans-culotte» بقطع رأسها، ثم قام صبي حلاق بتمشيط شعر الأميرة المليء بالدماء، قبل أن يتمّ استعراض رأسها وهو محمول على رمح خارج سجن المعبد «حتى تتمكن النمساوية l'Autrichienne[19] من التعرف على حبيبتها».

مارس الغوغاء أعمال القتل، لكنهم نادراً ما يتحملون كل الذنب. فما يتحملونه من ذنب، هو بقدر ما تتحمله عتلّة المقصلة. فالعتلة لوحدها لا تقتل. إنها تطلق النصل فقط. وإذا لم يكن دانتون موجوداً بشكل مباشر أثناء تنفيذ جرائم القتل، فإن كونه وزيراً للعدل، يعني ذلك أنه قد أُعلِم بالتأكيد بما حدث. لكنه لم يفعل شيئاً لمنع أعمال الذبح من خلال استخدام سلطاته.

ساعد هذا الرعب على تقدم جيوش دوق برونزويك. لا شيء كان يمكن أن يوقفهم إلى أن تجمع الفرنسيون من مختلف الفئات، وقد استثارتهم خطب دانتون النارية. جاؤوا من المزارع ومن المدن. حتى فيلق الضباط الملكي وضع نفسه في خدمة أول جيش لهذا الشعب. لم يعد الأمر يتعلق بأن هناك مَلِكاً في خطر، بل الشرف المقدس لفرنسا.

18- من رواية شاهد عيان معاصر هو فيليب موريس.

19- لقب ماري أنطوانيت. المترجم.

وتحت قيادة الجنرالين دوموريز وكيليرمان، سار جنود الأمة وراء راياتهم الثورية إلى طاحونة هوائية قرب فالمي لمواجهة الجيش البروسي. رفع الجنرال كيليرمان قبعته على طرف سيفه وبإشارته هذه بدأ دوي المدافع. بعد أن لاحظ دوق برونزويك مدفعية الثوار أعلن: «Hier schlagen wir nicht»[20] – نحن لا نريد خوض معركة». لقد أوقف الفرنسيون جيشاً محترفاً وبهذا قاموا بتبديد مرة واحدة وإلى الأبد الإيمان الخاطئ بدونية الجيش المؤلف من المدنيين. مع هذا النصر المذهل، تمّ إنقاذ فرنسا من التدخل الأجنبي. بعد يومين، في 22 أيلول 1792، أعلنت فرنسا نفسها جمهورية. أصبح بمستطاع دانتون واليعاقبة الآن أن يحوّلوا انتباههم الكامل إلى المشاكل الداخلية. كان مصير الملك السابق على رأس القائمة. ولكن كان عقل شخص ثوري واحد على الأقل هو، روبسبيير، يركّز تفكيره على عدوه، دانتون.

«L'homme est né libre, et partout il est dans les fers» يولد الإنسان حراً ولكنه في كل مكان يجرّ سلاسل الاستعباد. استوقفت عبارة روسو هذه روبسبيير الرجل ذا الخدود الغائرة وكان يرتدي صديرية الحرير الزرقاء وهو من أشد المعجبين بالفيلسوف الثوري جان جاك روسو. ببطء، وضع روبسبيير الكتاب جانباً وانحنى إلى الوراء وانغمس في التفكير.

لقد كان صباحاً بائساً، ذلك النهار الشتوي البعيد في باريس، عندما أمر مدير مدرسة كولاج دو كليرمونت التلاميذ بالخروج إلى الفناء المرصوف بالحصى. لقد أبقى الأولاد لساعات وهم يرتجفون في المطر والبرد القارس لأن لويس السادس عشر، ملك فرنسا، كان من المتوقع أن يمرّ عبر البوابة الأمامية. كيف كان يبدو، ملكهم ورمز القوة التي لا تقهر، تساءل مراهق نحيف من مدينة أراس مع نفسه، وكان طالباً لامعاً ودؤوباً لكنه يفتقر إلى الموارد المالية التي كان يتمتع بها زملاؤه

20- بالألمانية في الأصل. المترجم.

من التلاميذ، الذين كانوا من سلالة النبلاء. يقف الآن في الفناء، بساقين متعبتين وقطرات المطر تتساقط على ظهره. الانضباط والطاعة! إنها ليست فقط عقيدة مدرسة للأولاد بل لدولة بأكملها. بعد انتظار مضجر، ظهرت عربة صفراء رائعة في أعلى الشارع الضيق المرصوف بالحصى. تقودها أربعة خيول متناسقة يحيط بها مرافقون مسلحون. لم ير الأولاد وجه ملكهم، بل يداً ترتدي قفازاً أبيضَ وهي تلوح من وراء نافذة اجتازتهم. كانوا في طريقهم للعودة إلى صفهم، وهم يهزّون أنفسهم كما تفعل كلاب البودل المبللة ويناقشون القدرة المطلقة للملوك، عندما طلب منهم مدير المدرسة العودة إلى الفناء. فقد ظهرت عربة أخرى. لم يكن هناك شيء مميزٌ فيها، كانت تقودها فرس كبيرة في السن ومتعبة. وقد وقف فيها شخص، مرتدياً قميصاً ملتصقاً بجسده بسبب البلل، ويداه مربوطتان خلف ظهره. كانت عربة يقودها حصانان تعود لسيد باريس[21] «Monsieur de Paris»، وهو يحذر معلمهم: «ليكن هذا درساً لك. لا تتمرد على أسيادك. لا يحدث مثل هذا الأمر هنا، ليس في مملكة فرنسا Royaume de France بل في مكان آخر، ربما! مثل المستعمرات الإنكليزية الثلاث عشرة في أمريكا. هناك تجرؤوا على قول لا لملكهم. كان من السهل عليهم أن ينفصلوا عن ملكهم لأنه كان يفصلهم عنه محيط واسع، ليس هنا، حيث لا يوجد سوى عدد قليل من الفراسخ تشكل طول الطريق المستقيم من باريس إلى فرساي. عندما كانت العربة تتدحرج من حاجز البوابة الحديدي، التقت عينا الصبي بعيني الرجل المدان. كانت عيناه مليئتين باليأس وفقدان الأمل. كان واحداً من العديد من المحرومين، المحروم من حقه المدني في الوقوف ضد الظلم. كانت لحظة لم ينسَها الصبي أبداً ...

استفاق روبسبيير من حلم اليقظة وتناول كتابه. واستغرق في التفكير: «إيه يا روسو العظيم لقد علّمتني أن أقدر كرامة الطبيعة البشرية». كانت

21- اللقب الرسمي للجلاد العام في باريس، وهو تشارلز هنري سانسون.

فلسفة روسو بالنسبة له أقرب ما تكون إلى معتقد ديني. ومثل روسو، الذي كان رسول التغيير، كان روبسبيير يعتبر نفسه كممثل للفضيلة وسط النواب الرعاع والفاسدين البرجوازيين. وكان معبوده روسو يشدّد على قيمة الفضيلة، وله قول مأثور انتشر في جميع أنحاء فرنسا. «الرعب بدون فضيلة هو عمل دموي. والفضيلة بدون رعب هي عمل عقيم». هكذا أصبح الرعب فضيلة، وهكذا قرر ماكسيميليان روبسبيير.

في ذلك اليوم الخالد، اليوم الذي اقتحم فيه مواطنو باريس سجن الباستيل، الذي صادف 14 تموز 1789، كان شخصاً مجهولاً تماماً. كان نائباً من الشمال، لا يبتسم أبداً ولكنه كان يقضي ساعات يرتدي ملابسه الحريرية ويضع الباروكات، صوّت روبسبيير ضد الرقابة على الصحف، وعقوبة الإعدام، وضد الحرب، ومع ذلك كان هو الذي وقّع كل هذه المراسيم عندما أصبح في السلطة. لم يكن منافقاً، كما حاول بعض منتقديه أن يصفوه، ولا انتهازياً سياسياً، بل مؤمناً حقيقياً، مما جعله مرعباً أكثر منه منافق. انضم إلى مجموعة صغيرة من المثقفين الذين كانوا يتحدثون عن الثورة في كنيسة صغيرة في دير يعقوب المهجور. في البداية أطلقوا على أنفسهم أصدقاء الدستور، قبل أن يصبحوا معروفين باسم اليعاقبة. لم يكن روبسبيير يحب المظاهر الصاخبة، ولم يشارك في التجاوزات التي ارتكبت باسم الثورة من خلال تلك الظاهرة الاجتماعية الجديدة المسماة «الغوغاء»-أو كومونات مارا. هذه الجماعة المتطرفة، المكونة من حثالة المجتمع، لم يكن لها أي شيء مشترك مع البروليتاريا التي عُرفت في تاريخ لاحق. لم تكن فلسفتهم قائمة على «تجويع الجماهير العاملة، يجعلها تنهض من سباتها»، بل على مبدأ «اقتل من لديهم ممتلكات، وانتزعها منهم». كانوا جميعاً مثل جرذان المجاري، الذين لم يشاركوا في الثورة، ولكن بالتأكيد استفادوا منها. كان يعلم جيداً أن الجماهير لا تصنع الثورة، بل من يصنعها هم القادة فقط. يمكن أن يستخدم الغوغاء في أغراض مفيدة: يمكن استغلالهم لتلبية

احتياجات سياسية كتكوين مجموعة ضغط من خلال المظاهرات أو نوبات متفرقة من الإرهاب، وهو أسلوب استغله مارا بذكاء. وليدعهم يصرخون ويشعرون بأنهم مهمون، أو يجعلهم يقتحمون مبنى المؤتمر الوطني بأعداد هائلة ويشوشون على النقاش حول قضية ما بصراخهم، والذي يمكن تفسيره حينها على أنها «إرادة الشعب».

كان روبسبيير يحتقر مارا. لقد حوّل (صديق الشعب) الذكي هذا أتباعه من الغوغاء (sans-culottes) إلى سلاح سياسي هائل، منذ أن بدأ أعوان الشيطان هؤلاء يكسبون الكثير على حساب ضحاياهم. وخلافاً لغيره من القادة الثوريين، كان مارا يفلسف أعمال القتل ويزدري بشكل كامل كل المبادئ التي كان يعتبرها الآخرون مثلاً عليا. كان مارا يمثل مشكلة يجب معالجتها.

ولكن روبسبيير كانت تتملكه مشاعر الحسد تجاه رجل آخر، هو جورج جاك دانتون. في آب 1792 تمّ تعيين هذا الخطيب اللطيف والمتأنق وزيراً للعدل وعمره اثنتين وثلاثين سنة. كانت الغيرة من قدرات وطاقة منافسه الاستثنائية تأكل قلب روبسبيير. كانا متماثلين في السن (ولد روبسبيير في عام 1758، ودانتون في 1759)؛ وكانت وجهات نظرهم الثورية متماثلة – ولكن شخصيتهما لم تكونا كذلك. كان دانتون يثير الحماس وذا صوت جهوري. كان يحب الشهرة ومهاراته كخطيب يمكن مقارنتها بمواهب شيشرون[22]، أما روبسبيير فقد كان شخصاً مرهف الحس ذا وجه شاحب. كان يمضغ أظافره بعصبية ويبالغ في حديثه. كان يتجنب الأضواء، ويحب العمل في الظل. أما دانتون فكان شخصاً ذواقاً يحب زوجته والطعام الجيد، والصحبة الصاخبة. كان روبسبيير يكره حيوية دانتون ورجولته ويحب العزلة، فقد حبس نفسه مع كتبه وأفكاره في شقة صغيرة في شارع سانت أونوريه[23]. كان كلا

22- اقتباسات دانتون منه تملأ مجلدات، وأقواله لا تزال تخلّد على النصب التذكارية.
23- المنزل الذي عاش فيه وقام نابليون بهدمه.

الرجلين يحلمان بفرنسا جديدة، ولكن بينما كان روبسبيير يعكس مبادئ الفلسفة النقية لجان جاك روسو ويرى أن مهمته الرئيسة إقامة حكم الفضيلة، لم يكن دانتون يعتقد بشيء من القيود الأخلاقية لروبسبيير وقد قال ذلك فعلاً. في أحد أيام انعقاد الجمعية الوطنية، حيث واصل روبسبيير الحديث إلى ما لا نهاية عن الفضيلة، صرخ دانتون قائلاً: «الفضيلة هي ما أمارسه في السرير مع زوجتي!» عانى روبسبيير من الكوابيس. حتى إنه أشار إلى منافسه على أنه «صنم نتن، تعفن بالفساد». نمت الرغبة لديه في التخلص من دانتون وباتت تلك الرغبة تزداد قوة يوماً بعد يوم ودفعته إلى اتخاذ مواقف مزدوجة. خلال تلك الأيام من المعاناة التقى الشاب الذي سيلعب دوراً مهماً خلال أيام استبداده، إنه لويس أنطوان دي سان-جوست[24].

في ظل هذا النمو المتعاظم للعقائد الثورية المتحجرة، والتشابك الكثيف والخطير للقضايا والأحداث المعقدة، كان يستلزم الأمر مواهب ومهارات كبيرة للنجاح والبقاء على قيد الحياة. كان سان-جوست شخصاً سريع البديهة، ويمكنه أن يتغلب على خصمه بلسانه اللاذع، ويستطيع التعامل مع حشد من الناس. انتخب نائباً عن مدينة سواسون[25]، كان هذا الشخص البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً «والجميل كالملاك»، قد حصل على لقبه ليس بسبب جماله الجسدي. فقد كان سان-جوست، «ملاك الموت»، متعصباً للغاية حيث كان يقول: «أولئك الذين يقودون الثورات، أولئك الذين يرغبون في القيام بعمل جيد، يجب ألا يناموا أبداً إلا في قبورهم!». إذا كان روبسبيير قد أظهر بعض الإخفاقات البشرية، فقد كان سان-جوست من تلك الزواحف الهائجة التي تتغذى على الدم، أم إنه كان يحمل الطهارة الثورية في قلبه؟

24- ولد سان-جوست عام 1767 في ديسيز. لا يزال منزل والديه موجوداً في قرية بيليغونكو.

25- فاز بأغلبية ضئيلة من 349 صوتاً.

كان هذا هو لغز سان-جوست. كانت فكرته عن اليوتوبيا كونها مكاناً يؤدي فيه الرجال وظيفتين رئيستين فقط، إما كمزارعين (لإطعام الأمة) أو كجنود (للدفاع عن الأمة)؛ حيث يتم أخذ الأطفال من والديهم في سن صغيرة، ويُحتجزون في مؤسسة، ويتمّ حشرهم في قالب ثوري ليتحولوا إلى جيش من الروبوتات[26]، لم يقم بذكر النساء أبداً لأنه لم يكن يعترف بوجودهن. وقد تآمر هذان الشخصان لإسقاط جورج دانتون.

وفيما يخصّ محاكمة الملك، كان دانتون يعتمد على دعم أغلبية النواب. كان الأمر يتطلب القيام بخدعة. تم الاستعانة بصانع أقفال محترف يدعى فرانسوا غامين ليساعد الملك في شغفه بتصليح الساعات. أخبر دانتون غامين أن الملك قد خانه، وأنه سيفقد حياته، ما لم... ثم سأله فجأة «الخزنة، أين هي؟» قاده غامين المرعوب إلى خزانة حديدية صغيرة مخفية، كشفت له عن 627 وثيقة سرية. وبهذه الوثائق، أصبح دانتون يمتلك الأدلة لتوجيه تهمة الخيانة العظمى إلى الملك. وأثناء انعقاد المؤتمر الوطني، أعلن أنطوان سان-جوست، الذي كان هادئاً ومتهكماً بقدر ما كان قاسياً، قائلاً: «نحن هنا ليس لمقاضاة الملك بل لمحاربته. في القرن الثامن عشر، نحن لسنا أقل تطوراً من زمن يوليوس قيصر، حيث قُتل الطاغية في مجلس الشيوخ بدون شكليات زائدة من خلال ثلاثين طعنة خنجر ومن دون الاستعانة بأي قانون آخر سوى ذلك الذي تفرضه حرية روما. فليحدث ذلك هنا. إنني أطالب بإعدام الملك من دون محاكمة!». كانت دعوة اليعاقبة واضحة: الاستيلاء على السلطة، ويجب على الملك أن يموت!

رفض المؤتمر الوطني تنفيذ هذا الطلب، وأرسل النائب تشامبون إلى المعبد المحتجز فيه الملك: «كلفتني الجمعية الوطنية بإخبارك: أنت متهم يا لويس كابييه»[27]. أُخْرِج لويس من الغرفة واقتيد إلى الفناء. من

26- تم تصوير «جيش الروبوتات» ببراعة في فيلم متروبوليس للمخرج فريتز لانغ.
27- اسم سلالة العائلة التي حكمت فرنسا. المترجم.

نافذة صغيرة كانت الملكة تراقب وكان هناك طفل يبكي. كان الابن البكر للملك يبلغ من العمر سبعة أعوام فقط ولم يكن يفهم شيئاً.

«لويس كابييه، إن الأمة الفرنسية توجّه لك الاتهام...». بهذه العبارة، افتتحت محاكمة الملك في 26 كانون الأول 1792. وقد اتهم الملك بسلسلة من الجرائم التي كان يعرف، كما يعرف من اتهموه، أنه لم يكن طرفاً فيها.

«أنا لا أعترف بهذه المحكمة. لا يمكنكم محاكمة الملك».

«نستطيع، وسنقوم بذلك. أنت، لا نحن، من سيحاكم».

«لماذا؟» سأل الملك المخلوع.

«لأن حياتك على المحك !».

جلس الملك واستمع وهو مستسلم بكرامة. لوّح المدعي العام فوكييه تانفيل بحزمة من الأوراق. «أيها المواطنون، لديّ هنا بعض الوثائق التي تثبت بدون أدنى شك أن المتهم مذنب».

تمّ تعيين اثنين من المحامين، هما ماليشيرب وترونشيه[28]، كمساعدين قانونيين، وسمح لهما بمناقشة استراتيجية الدفاع مع الملك السابق. كانوا يعرفون أن فرصه كانت ضئيلة. تحول النقاش حول الحكم إلى نقاش ساخن حول ثلاثة أسئلة:

1. هل إن لويس كابييه مذنب؟
2. هل يجب عرض الحكم على التصويت الشعبي؟
3. إذا وجدت المحكمة أن الملك مذنباً، ما هي العقوبة التي يجب أن تصدر بحقه؟ السجن أم النفي أم الإعدام؟

عارض الجيروندیون المعتدلون اليعاقبة المتطرفين وشعارهم «الموت للطاغية!». تحدث قائدهم «ملاك الموت»: «لقد حارب لويس شعبه وتمّ إسقاطه. كان ينظر إلى مواطنيه كعبيد عنده. هو وحده

28- عاش ترونشيه بعد ذلك وأصبح النائب العام. أما ماليشيرب فقد أعدم بالمقصلة.

المذنب في أحداث سجن الباستيل وقصر التويلري. أنا أسأل من هو العدو الأجنبي الذي تسبّب لنا بهذا الكمّ من الأذى»، ثم توقف لفترة من الوقت قبل أن يضيف بلهجته الجليدية الباردة المعتادة: «إن الأمة تطالب بإعدامه!».

دُعِيَ توماس باين، الثوري الإنكليزي لحضور إجراءات المحاكمة لإعطائها ذرة من المصداقية، فكتب اقتراحاً على قطعة من الورق وسلّمه إلى رئيس المؤتمر الوطني: «نفي الملك إلى أمريكا». لم يؤخذ اقتراح باين بعين الاعتبار.

صاح الرعاع أنصار مارا وسط القاعة قائلين: «سلمونا رأس الخنزير البدين». كان دانتون يجادل بقوة من أجل إنزال العقوبة القصوى، وهدّد سان-جوست النواب. كان روبسبيير هو الوحيد الذي كان يقف جانباً ويراقب. كان مارا على رأس قائمته. كان لا بدّ من التخلص منه؛ وبدون رحمة. تمت الدعوة إلى التصويت واستمر لفترة طويلة، تعادلت أصوات القبول والرفض. إلى أن وقف ابن عم الملك، الذي أصبح يطلق على نفسه اسم فيليب إيغاليتيه، قائلاً: «إنني أصوت لصالح عقوبة الإعدام !». وكان تصويته هو الحاسم. تمّ التصويت على عقوبة الإعدام للملك بفارق خمسة أصوات![29] بكى لازار كارنو، رئيس الحكومة عند توقيعه المرسوم. ورُفِضَ إرجاء تنفيذ الحكم. أمر المدعي العام، تشارلز هنري سانسون، الذي لم يكن يعرف إلّا باسم سيد باريس، بتهيئة إجراءات تنفيذ الحكم. لم يكن السيد سانسون، سياسياً ويفتخر بنفسه «لكونه يؤدي وظيفته على أكمل وجه»، ولم يكن ينحاز لأي طرف. ولم يكن يطرح الأسئلة أبداً. كان يقطع رأس أي شخص من اللص إلى الملك.

29- تبين بعد ذلك أن ثلاثة عشر صوتاً كانت غير قانونية؛ بعض الناخبين لم يتمّ تسجيلهم حتى في القائمة، وكان أحدهم صغيراً جداً: سانت-جوست، الذي كان لا يزال أقل من السن المسموح له بالتصويت.

جاءت آخر محاولة لالتماس العفو عن حياة الملك من قبل ممثلة مشهورة في المسرح الوطني الفرنسي، وهي الآنسة فلوري فقد شقت طريقها نحو شقة مارا، التي لم يكن يزيّنها سوى ملصق كتبت فيه كلمتين: «La Mort» الموت!

«أتوسل إليك أن تعفو عن الملك».

«ما هذا الذي تجرُئين على قوله؟ لا تتحدثي بصوت عالٍ هكذا فقد يتمكن الآخرون من سماعك، وسيُحكم عليك بالإعدام بسبب ما تتفوهين به».

«يا مارا، أنا لست خائفة. إنه لأمر مؤسف أن أراك تسير في طريق الدم الذي يؤدي إلى الهاوية، وأريد أن أوقفك».

«أنا لا أنكر ذلك، كان لويس هو الذي ساعدنا في صنع الثورة. الآن علينا الدفاع عنها بكل قوتنا».

«مارا، كم علينا أن نذرف من الدموع ونريق من الدم، قبل أن نجد الطريق الذي يعيدنا إلى الوحدة والمحبة؟ ولهذا، سيكون عليك قطع العديد من الرؤوس».

«وليكن، حينما يبدأ مرض الغرغرينا بالانتشار يجب بتر الطرف المصاب لإنقاذ الجسم. نحن نزرع الدماء والدموع حتى يتسنى لمن بعدنا أن يحصد الفرح».

«هذا الأمر يحتاج وقتاً طويلاً».

«الرجال الأقوياء يمكنهم الانتظار».

أدركت الآنسة فلوري أنها فشلت في مسعاها.

فُتِحَ باب زنزانة لويس بقوة ودخل إليها اثنا عشر رجلاً من الهيئة التنفيذية للمؤتمر الوطني. تمّت قراءة الحكم، لكن الملك لم يظهر أي ردّ فعل. جلس كاهن إيرلندي هو، إدجورث فيرمونت، مع الشخص المُدان. جلس الملك لتناول العشاء في وقت متأخر. وكانت ملاحظته

الوحيدة هي أنهم أخذوا سكينه التي يقطع بها اللحم. «هل يتصورونني جباناً إلى حدّ أنني أنتحر؟»، طلب الملك فيما بعد رؤية عائلته. وكان أول من دخل إلى الغرفة هي الملكة، وهي تمسك ابنهما البالغ من العمر سبع سنوات من يده. وتبعتها شقيقات الملك. ولمرة واحدة، أظهر السجان شيئاً من الحشمة من خلال إغلاق الباب للسماح لهم بالتمتع باللحظة الأخيرة من الخصوصية. بكت الأميرات، وحاولت الملكة الحفاظ على بعض رباطة الجأش. بدا ابنه غير متأثر، فقد جنّبه صغر سنه إدراك حقيقة المأساة. أمسك الملك والملكة ابنهما من يده. ووعده الملك قائلاً «سأراك صباح الغد».

«هل هذا وعد، يا أبي العزيز»؟

أجابه: «أعدك»، ثم همس لماري أنطوانيت: «وداعاً».

وضع لويس ممتلكاته الشخصية على رف الموقد، علبة السعوط، وساعته، ونظاراته. ثم نادى القس إدجورث، حتى إنه ساعده في ترتيب طاولة الطعام الصغيرة لتكون المذبح، ثم ركع بينما كان الكاهن يناوله القربان المقدس[30]. في مكان ما في المدينة تعالى صياح ديك. تلمس لويس طريقه إلى المرآة. ما كان يحدق به كان وجهاً متجعداً ذا شعر رمادي، وعينين توشحهما أوردة حمراء واثنان من التجاعيد العميقة في منتصف جبهته. تفحص ساعته. إنها الساعة الثالثة، هناك خمس ساعات أخرى. مرّ سرب من الحمام من أمام قضبان نافذة السجين. بزغ فجر يوم 21 كانون الثاني 1793 وكان يوماً شديد البرودة وكانت شوارع باريس مهجورة. وقد صدرت الأوامر للمواطنين citoyens بالبقاء في منازلهم خلف أبواب مغلقة. نُشِرت المدافع فوق كل جسر، وفي كل حي، واصطف الآلاف من الحراس على طول الطريق. انتصبت المقصلة

30- طقس مسيحي للتذكير بالعشاء الذي تناوله يسوع بصحبة تلاميذه عشيّة آلامه. الاحتفال يكون بصيغة تذوق أو غمس قطعة من الخبز الذي يمثل جسد يسوع في القليل من الخمر الذي يمثل دم يسوع. المترجم.

في ميدان الثورة الذي يعرف اليوم باسم ميدان الكونكورد، بين البوابة المؤدية إلى حدائق قصر التويلري وقاعدة النصب التذكاري الذي كان يحمل في يوم ما تمثالاً للفارس لويس الخامس عشر. انتهى الجلاد ومساعدوه من استعداداتهم النهائية. في الساعة 8.30 صباحاً سُحِب مزلاج الباب المؤدي إلى حجرة الملك. دخل ثلاثة رجال الغرفة. اثنان منهم كانا كاهنين سابقين، هما بيير برنار وجاك رو، وكانا من النواب المتطرفين في المؤتمر الوطني، اللذين طالبا أن ينالا الشرف المريب باقتياد الملك إلى المكان الذي سيلقى فيه حتفه. وكان «الثالث» هو الجنرال سانتير، قائد الحرس الوطني.

حاول لويس أن يسلّم جاك رو لفافة ورق تحوي وصيته: «هل يمكنك تسليم هذا إلى الملكة؟».

سخر منه رو قائلاً: «مهمتي هي أن أقودك إلى منصة الإعدام، وليس نقل رسائلك».

أخذ الجنرال سانتيير الورقة. «سأعطيها لها». قال ذلك وهو يوجِّه نظرة غائمة نحو جاك رو.

تناول كليري الخادم الخاص للملك معطفه، لكنه قال: «لن تكون لدينا حاجة له». استدار الملك نحو الجنرال قائلاً: «نحن مستعدون. هيا بنا».

في العربة السوداء التي كانت ستائرها مغلقة، سلم القسيس إدجورث الملك كتاب الصلوات اليومية وبدأ لويس في قراءته. كانت حوافر الخيول تصدر أصواتاً عالية وهي تسير في أخاديد الشوارع المهجورة، عبر ميدان دي غريف، على طول شارع سانت أونوريه، وفي ميدان الثورة، نحو تمثال ضخم من الجبس يسمى la Liberté الحرية. وهنا بعد عدة أشهر، ستنظر مدام رولان -وهي إحدى المتحمسات الشديدات للثورة- وهي في طريقها إلى المقصلة، إلى التمثال وتقول: «إيه أيتها الحرية، كم من الجرائم يرتكبونها باسمك!». كان هناك اثنا عشر ألف

جندي مجهزين بالحراب يحيطون بالآلة التي اقترحها الطبيب جيوتن[31] والتي صمّمها صانع بيانو باريسي وساعد الملك على تحسينها من خلال اقتراح تركيب شفرة ثلاثية لتوفير عملية ذبح سلسة. وإلى خلف مجموعة الجنود المسلحين، كانت تقف عربة فيليب إيغاليتيه السوداء الذي أدّت خيانته الخسيسة إلى إصدار حكم الإعدام على ابن عمه. وفي غضون تسعة أشهر، سوف يتسلق هو أيضاً السلم حيث سيكون له موعد مع الجلاد.

«يا جنرال، إذا لم أخطئ، فقد وصلنا إلى وجهتنا». لم يذكر الملك كلمة «النهائية». وبدون أن يجفل، نظر إلى الآلة الشريرة ونزع سترته وفتح الأزرار الموجودة في عنق قميصه. لم يُسمع صوت في الساحة المكتظة بالأشخاص، لم يتحرك شخص واحد من الآلاف المتجمعة؛ كان الصوت الوحيد المسموع هو صوت صهيل الخيول وصوت كشط حوافرها على الحصى. بدأ أحد الطبول يقرع، وانضم إليه آخر وآخر، حتى بدأت تُقرع المئات من الطبول. أمسك مساعدو الجلاد (سانسون) الملك من مرفقيه وسحباهما إلى الخلف ليربطا كتفيه «لا تقيدا كتفي، لن أسمح لكما بذلك». ارتبك المساعدان، أشار لهما الجلاد وعرف لويس أنه لا جدوى من المقاومة. وضع يده خلف ظهره ولفّ أحد المساعدين حبلاً رفيعاً حول معصميه. صعد السلم ببطء، وعند المنصة، رسم القسيس إدجورث علامة الصليب على رأس الملك المدان. ارتفع صوت قرع الطبول إلى أوجّه إلى حدّ بدأ يمزق الأذن

تحول لويس إلى قارع الطبل «Arrêtez vous!» توقف!

ألغى الجنرال سانتير أمر الملك قائلاً: «Continuez! تابع!»

31- طبيب فرنسي اقترح استخدام جهاز لتنفيذ عمليات الإعدام في فرنسا بطرق أقل إيلاماً. لم يكن هو الشخص الذي اخترع المقصلة في الحقيقة فقد كان يعارض عقوبة الإعدام، ولكن أصبح اسمه يطلق على المقصلة. المترجم.

تواصل قرع الطبول. توجه الملك بخطابه نحو المحتشدين: «بما أن الرب هو شاهد على ما أقول وأفعل، فأنا بريء من كل الجرائم التي اتُّهِمت بها...». لكن صوته غرق وسط أصوات مائة طبل كان يقرع. لم يسمع تبريره سوى الكاهن الإيرلندي. أمسك مساعدو الجلاد (سانسون) بالملك لويس من تحت ذراعيه وربطوه بشكل مستقيم باللوح الخشبي الذي تمّ تنظيفه للتو. بدأ القسيس يتلو صلاته «يا ابن لويس القديس[32]، فلتصعد روحك إلى السماء». قام أحد المساعدين بدفع اللوح إلى الأمام ليكون في وضع أفقي. أمسك ابن الجلاد برأس الملك ودفعها إلى الأخدود. مع صدور صوت قعقعة أخذ مثبت الرأس الخشبي موضعه. توجه الجلاد إلى الرافعة. كانت هناك لحظة تردد عندما نظر الجلاد أو سيد باريس Monsieur de Paris إلى الجنرال سانتير الذي ردّ عليه «أيها السيد، قم بواجبك!»، وانخفضت الرافعة، وارتخى الحبل... وفي لحظة من الزمن، تدلت الشفرة اللامعة وتألقت بلمعانها في الشمس. ثم هوت إلى الأسفل قطعة ثقيلة من الفولاذ المشحوذ، مما أدى إلى هرس العظام واللحم. انطلقت قذيفة من أحد المدافع. التقط رئيس حرس الشرف، النقيب لو جروس، رأس الملك من السلة ورفعه عالياً ليراه الجميع. تعالت الأصوات بالهتاف: «Vive la république!» عاشت الجمهورية!». كان ملك سلالة البوربون قد سقط ميتاً[33].

وبعيداً عن حدود فرنسا، كان ردّ الفعل على قتل الملك شيئاً من عدم التصديق الذي يشوبه الرعب. ولكن بصرف النظر عن استدعاء سفرائهم (أولئك الذين كان لا يزال لديهم سفراء في باريس)، فإن الملوك الأجانب لم يفعلوا شيئاً. في فرنسا ساد مزيج من الابتهاج والخجل. كتبت صحيفة Le Véridique تقول: «إن وفاة لويس السادس عشر قد خلقت قديساً

32- لقب ملك فرنسا لويس التاسع. المترجم.

33- ألقي على الفور بجثته في حفرة من الجير الحي في مقبرة مادلين. وبعد اثنين وعشرين عاماً، تمّ العثور على رفاته ودُفن بشكل لائق.

آخر». في الواقع، حاول لويس السادس عشر إرضاء الجميع، لكنه فشل للأسف. علمت ماري أنطوانيت بإعدام زوجها في صباح اليوم التالي عندما ناداها حارس السجن بسخرية بـ «أرملة الملك». كان عليها أن تكون قوية ولا تنسى أنها ما زالت ملكة، وحين رأت أن فتاها الصغير يكفكف دموعه، قالت له: «إن الملك لا يبكي أبداً، وجعلت ابنها الذي ينتحب يقف على قدميه». ثم ركعت لتحييه كملك فرنسا الجديد، لويس السابع عشر.

«Le roi est mort, vive le roi مات الملك، عاش الملك».

كانت عواقب الحدث مثلما يتوقع المرء. تمّ تدمير أي شيء مرتبط بالملوك؛ تمّ هدم التماثيل وتدنيس المقابر. تمّ بيع القلوب المحنطة للملوك العظماء في مزاد علني. تمّ إلقاء القبض على جميع من له علاقة وإن كانت بعيدة مع العائلة المالكة وتمّ إرساله إلى المقصلة. كانت آخر كلمات فيليب إيغاليتيه: «Merde يا للقرف!» مدام دو باري، عشيقة لويس الخامس عشر، تصرخ من أجل طلب الرحمة. قُتل المحامي الذي تجرأ على الدفاع عن الملك بوحشية، هو وأبناؤه وأحفاده. قطع رأس إليزابيث أخت الملك، وألقيت جثتها وهي عارية في مقلع للجير.

كانت المبادئ الثلاثة للثورة الفرنسية: الحرية، والمساواة، والإخاء، وهي التي تمثل في الحقيقة فكرة الحرية السياسية، قد ماتت. وبينما كان مبدأ المساواة يعني القضاء على الامتيازات القديمة ومبدأ الإخوة يعني إقامة وحدة وطنية جديدة، فان مبدأ الحرية قد تمّ سحقه بالأقدام. كانت المحاكم الثورية تدين وكان الجلاد يقوم بعمله، مما أدى إلى تقديم المزيد من الضحايا لإشباع مقصلته النهمة. أصبحت فرنسا سجناً ضخماً وبات سكانها يعيشون تحت التهديد الدائم من سقوط نصال المقصلة على رقابهم. وصلت الحرب مع النمسا إلى طريق مسدود. تمّ إرسال المواطن لويس - أنطوان سان--جوست (الذي تخلى بهدوء عن لقب

النبلاء de)، والذي انتخب عضواً في لجنة السلامة العامة[34]، كممثل لها إلى الجيوش الثورية في نهر الراين والشمال. أصبح الاتصال بين باريس وقواتهم سيئاً للغاية حتى إن الجنرال دوموريز، قائد المنطقة الشمالية والذي انتصر في معركة فالمي، بقي لمدة عشرة أيام يجهل أن إنكلترا دخلت الحرب ضد فرنسا. (بعد مفاوضات سرية، غادرهم دوموريز وانضم إلى النمساويين. كان انشقاقه إيذاناً بحدوث الكارثة بالنسبة لصديقه دانتون).

وأعلن سان-جوست: «إن التقنيات العسكرية للنظام الملكي قد عفا عليها الزمن»، لم تحصل الجمهورية الفرنسية (La république Française) على شيء من أعدائها غير الرصاص، ولن تعود إلا بالرصاص. تكمن قوة الثورة في شعبها وتتمركز في انتصاراته. لدى جمهوريتنا بالفعل طابعها السياسي، والآن يجب أن يترجم هذا إلى نظام عسكري لضرب أعدائنا. ولتحقيق ذلك، لا يمكننا القبول بأي شيء غير الحرب غير المحدودة. قدرنا هو تغيير وجه أوروبا. لن نرتاح حتى تتحرر كل الأمم، لأن حريتها تضمن لنا حريتنا. توجد ثلاثة أشياء خسيسة على الأرض: الملوك وطاعة هؤلاء الملوك؛ وأن نلقي أسلحتنا في حين لا يزال هناك سيد وعبد.

كان سان-جوست قادراً على أن يوصل صلابته إلى الجنود وأن يغرس في جيوش الجمهورية الحماسة التي لا تقاوم والاندفاع الذي سيقودهم إلى النصر. خلق هذا الرجل البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً المناخ الجوهري في فن الحرب الحديثة: الروح الهجومية «attaque á l'outrance» في المسرح السياسي، وجّه سان-جوست حماسته الثورية إلى مديات غير معقولة. وقال أمام لجنة السلامة العامة ليبرّر ما يفكر به: «ترتكز الجمهورية على الإبادة الكاملة لجميع أولئك

34- أنشئت في آذار 1793 من قبل المؤتمر الوطني وأُعيدت هيكلتها في تموز 1793، شكلت حكومة الأمر الواقع التنفيذية في فرنسا خلال عهد الإرهاب. المترجم.

الذين يعارضونها. وفي هذا المجال يجب أن نبقى غير مرنين، يجب أن نعاقب الخونة وجميع الذين لا يظهرون أي حماس تجاه قضيتنا. هذه الجمهورية تدين للمواطنين الصالحين بحمايتها. والسيئون لا يستحقون منها إلا الموت. كان هذا التأكيد هو التوجيه الأساس للإرهاب». وقد قال عبارته الشهيرة، التي كررها الدكتاتوريون في جميع أنحاء العالم: «دعوا مقابرنا تكبر، وليس سجوننا».

ظل سيد باريس مشغولاً. كان الاعتقاد الشائع بأن الجلاد العام هو كبير كهنة الموت قد ترسخ بعمق بين الناس العاديين. لم يجرؤ أحد على التحدث إليه؛ ولم يقترب أحد من عائلته. كانت أقراص الخبز الخاصة به توضع بشكل مقلوب في المخبز حتى لا يأخذها أحد ما عن طريق الخطأ. وكان يمارس عمله في وسط المدينة، وفي الميدان العام، الذي كان يسمى أثناء ثورة باريس بميدان الثورة، وكان حجمه يسمح باستيعاب أكبر عدد ممكن من الناس لحضور المشاهد الرهيبة، من أجل منع الجرائم في المستقبل. لكن الأرستقراطيين الذين تمّ إعدامهم بالمقصلة لم يكونوا مجرمين، ولم يكونوا سارقين معروفين، ولم يرتكبوا جرائم القتل على الإطلاق، مثلما حدث مع مدام لامارشيل دي نواي التي كانت تبلغ من العمر ثمانين عاماً. وبينما كان يتمّ اقتياد هذه الأرواح الشقية إلى تلك الآلة المروعة، كان عدد من البهلوانات «saltimbanques» يقومون بتسلية حشود الناس بأداء عمليات إعدام وهمية، أما الحانات الصغيرة التي تطلّ على المقصلة فقد ازدهر نشاطها التجاري وزادت مبيعاتها من الحساء والبيرة. وأصبح من الأصوات المألوفة، سماع جرس الجلاد في العربة ذات الحصانين وهي تحمل أحد أولئك تعيسي الحظ المحكوم عليه بالإعدام، جالساً بيأس على اللوح الخشبي، ولم يعد يلاحظ ما يدور حوله. لقد كانوا موتى بالفعل. وبمجرد وصول العربات إلى المقصلة، كان يُسحب بعض الأشخاص بقوة ليصعدوا الدرج، بينما كان يصعدها آخرون بكرامة وهدوء. كان مساعدو الجلاد يعصبون أعينهم؛ ليس لكي

لا يتمكن المدانون من مشاهدة لحظتهم الأخيرة، ولكن للسبب نفسه الذي تكون فيه عيون الجواسيس معصوبة قبل إطلاق النار عليهم: لا أحد يريد التحديق في عيون الضحية. كان البعض يسير بهدوء نحو حتفه، بينما كان آخرون يقومون بشتم قضاتهم قبل أن تهوي شفرة المقصلة وتخرس لعناتهم. «الإرهاب لن يتوقف عن أن يكون ممارسة يومية حتى يتمّ القضاء على آخر أعداء الجمهورية». وهكذا لاقى الأرستقراطيون في فرنسا حتفهم. فقد اقتيد أكثر من ثلاثة آلاف منهم إلى المقصلة.

ومع ذلك، وسط كل هذه المذبحة اللاإنسانية، تبرز واحدة من الضحايا. في 16 تشرين الأول 1793، بعد تسعة أشهر من إعدام زوجها، بدأت الملكة ماري أنطوانيت رحلتها الأخيرة عبر شوارع باريس. وفي الشوارع نفسها التي تجوّلت فيها في عربة مطلية بالذهب يوم دخولها المظفر إلى باريس كعروس شابة لملك مستقبلي، بعد ثلاثة وعشرين عاماً استقلت الملكة السابقة العربة المستخدمة لنقل المجرمين إلى مكان تنفيذ العقاب بهم. والحشود التي كانت في يوم من الأيام، ترمي بتلات الزهور أمامها، وتهتف بحماسة للأميرة الشابة الجميلة، هي نفسها الآن تصبّ اللعنات على امرأة عجوز متعبة ذات شعر رمادي قصير تختلس النظر من وراء قبعة، وهي ترتدي ثوباً أبيضَ خفيفاً، وتلف نفسها بشال قديم يحميها من البرد. وكانت يداها مربوطتين خلف ظهرها كانت الجموع تهتف: «Mort á l'Autrichienne! الموت لتلك النمساوية!» في ذلك اليوم، وصلت الثورة الفرنسية بالفعل إلى أقصى درجات الخزي والعار. «لم يكن ذلك قتلاً للملكة، كان أسوأ من ذلك بكثير». تلك كانت كلمات نابليون.

يمكن تحديد تأريخ بداية مرحلة الإرهاب: في يوم 13 تموز 1793. أو، لنكن أكثر دقة، فإنه بدأ في الساعة العاشرة والنصف في ذلك الصباح، عندما كانت شارلوت كورداي دارمونت ابنة النبلاء الورعة البالغة من العمر أربعة وعشرين عاماً من آل نورمان النبلاء، تسير بهدوء في منزل

جان بول مارا وغرزت سكيناً في صدره بينما كان ينقع جسمه في حمام طبي. قبل إعدامها، أخبرت شارلوت كورداي بسرها أحد الأصدقاء من أن بعض الكائنات السماوية قد أمرتها بتخليص العالم من المسيح الدجال. من كان ذلك الكائن السماوي الذي همس في أذنها؟ هل كان الله، هل هو من أتباع الملك، أم إنه ربما كان أحد مبعوثي روبسبيير المقنّعين؟ كان مارا بثرة تحتاج إلى أن تُشَقّ بمبضع.

تحقيقاً لهذه الغاية، اصطف روبسبيير مع دانتون في ما كان يُعتبر أكثر التحالفات غرابة، لأن دانتون الذي وصف روبسبيير بأنه «مخصي طاهر» كان مدفوعاً بالطموح نفسه ولم يكن يتورع عن استخدام أي وسيلة لتحقيق ذلك. لم يكن دانتون نبياً أو كاهناً، كان يحبّ شيئاً واحداً فقط: السلطة! ولذلك فقد كان روبسبيير على استعداد للتعاون مع الشيطان نفسه للإطاحة بمارا، وهو رجل عدواني ومجنون ونبي المساواة «Égalité». أطلقت عملية قتله في الحمام العنان للغضب الشعبي ضد المعتدلين. خلال السنوات السابقة، كانت رسائله اللاذعة التي يوجّهها في صحيفته «L'ami du people» (صديق الشعب) مسؤولة عن العديد من المذابح التي ارتكبتها عصابات باريس. وقبل شهر من وفاته، تسبّب في سقوط حزب الجيروندبين القوي عندما حرّض الكوميونيين على اقتحام «المؤتمر الوطني» وطرد 22 نائباً باستخدام حرابهم. مع نهاية مارا، أصبح الطريق إلى السلطة الدكتاتورية سالكاً أمام الزعيمين الراديكاليين اللذين كانا يرمزان إلى الإرهاب العظيم: دانتون وروبسبيير. ونظراً للاختلافات في شخصياتهم وطريقة تفكيرهم، كان من الواضح أن على أحد منهم أن يذهب.

على مدى عدة أشهر، سعى روبسبيير لإحكام قبضته على فصيل اليعاقبة. لكن في اليوم الذي وقع فيه مارا ضحية لكراهيته الطبقية، فإن دانتون ملأ الفراغ بسرعة. كانت الأمة وسط حالة من الفوضى والاضطراب، واحتاجت إلى رجل قوي. بدأ الإرهاب مع ممثلي الشعب المنتخبين الذين يقومون بتبادل إرسال بعضهم البعض إلى المقصلة.

أول من تمّ تنحيتهم جانباً كانوا هم الجيروندیون والذين كانوا لأكثر من عام يسيطرون على المؤتمر الوطني، ويعتاشون على المكائد ويؤيدون أعمال التمرد؛ ومع ذلك، عندما تصل الأزمة إلى ذروتها، كانوا يتقززون من سفك الدماء. لم يكن لدى اليعاقبة مثل هذا الوازع. تمّ القبض على تسعة وعشرين من الجيروندیين تحت تهديد الحراب، وجِّهت لهم تهم ارتكاب جرائم معادية للثورة، وفقدوا جميعاً رؤوسهم، بما في ذلك قادتهم فيرنيغو وديكو وبريسو.

حاول فيرنيغو أن يبرر ضعفه: «لقد أخطأنا في الوقت الذي حاولنا فيه تحقيق الحرية للجميع. دعونا لا نأخذ المستقبل معنا حتى الموت، ودعونا نمنح هذه الأمة بعض الأمل».

ديكو: «وماذا سنفعل غداً في مثل هذا الوقت؟».

بريسو: «سوف نرقد أخيراً في سلام».

ربما فعلوا ذلك، لكن بلدهم لم يفعل ذلك. في غضون عام واحد، قادت ديكتاتورية حزب الجبل (اليعاقبة) الأمة إلى حرب متهورة. أصبح الوضع يائساً. وانضم الجنوب الغربي إلى غرب فرنسا في تمرد مفتوح. تمكن بعض الجيروندیين المطرودين من تكوين جيش في مقاطعة النورماندي والتوجه به نحو باريس. ثار سكان كورسيكا تحت قيادة باولي. وركز البروسيون جيوشهم على مدينة ماينتس واستولى النمساويون على مدينة فالنسيان. نزل الإنكليز في ميناء دنكيرك وغزا الإسبان قرية روسيون الفرنسية. تمّ إعدام جنرالات جيش ما قبل الثورة الكبار في السن بسبب «عدم وجود حماسة لديهم»، وتمّ تعيين الشباب مكانهم. في كانون الأول 1793، استعاد الجنرال دوغومييه مدينة تولون من البريطانيين، وقام الجنرال كليبر بالقضاء على انتفاضة شوانوري[35] في بلدة شوليه، انتصر الجنرال مارسو على البيض (الملكيين) في مدينة

35- انتفاضة ملكية أو ثورة مضادة حدثت في اثني عشر من الأقاليم الغربية في فرنسا. المترجم.

لومان، وفي الشمال، هزم الجنرال جوردان النمساويين في مدينة واتينيه. كانت أعمار هؤلاء الجنرالات المنتصرين أقل من ثلاثين سنة

في باريس، كان الناس يهتفون ويلوِّحون بالأعلام. لم ينشغل بال الزعيمين الكبيرين بالتصدي للأخطار الخارجية، ولكن بالصراع على السلطة الذي تنامى في المؤتمر الوطني. والشيء المؤكد تماماً، أنه كان هناك شخصان قاسيان للغاية، مهووسان بالسلطة، وكان من المحتم أنهما يتجهان إلى مسار تصادمي. وفيما اعتمد دانتون في قوته على سكان أحياء المدن أو الكوميونات، استند روبسبيير في قوته على نادي اليعاقبة وقوة لجنة السلامة العامة (Comité du Salut Publique). وبجعله هذه اللجنة أداة له بدأ يحفر قبر دانتون. هذه المرة أثبت روبسبيير أنه أكثر كفاءة. ولأنه كان من الصعوبة بمكان أن يتمكن من توجيه تهمة مناهضة الثورة إلى دانتون، فقد كان عليه خلق قضية مختلفة. وفي عملية كانت بمثابة بروفة لاعتقال دانتون، قُبِضَ على أنصاره، واتهموا بأعمال غير أخلاقية، وأرسلوا إلى المقصلة. أدّت «القضية اللاأخلاقية» هذه إلى الخطوة التالية. وبمساعدة سان-جوست، بدأ المثل الأعلى للفضيلة بتوجيه الاتهامات: «يحيط دانتون نفسه بعناصر غير شريفة. كيف يمكن أن يعهد إلى رجل، بعيد هكذا عن الأخلاق، قيادة الكفاح من أجل الحرية؟».

توسل أصدقاء دانتون به كي يشنّ هجوماً مضاداً أو يفرّ من البلاد. رفض اقتراحهم برد نموذجي يليق به: «أنا لا أحمل (patrie) الوطن بين أخمص قدميّ».

أطلق سان-جوست الشرارة الأولى. وطالب لجنة السلامة العامة (والتي يمكن مقارنة قوة السلطة التي تملكها مع سلطة مجلس الشيوخ الأمريكي) باعتقال جورج جاك دانتون بتهمة الخيانة العظمى، لكونه ساعد وحرّض أعداء الجمهورية. وادعى أن دانتون قد تواطأ في عملية انشقاق الجنرال دوموريز وانضمامه إلى النمساويين. من بين أعضاء

اللجنة العشرين، لم يجرؤ سوى اثنين على رفض طلب سان جاست. لقد كان عملاً شجاعاً ولكن متهوراً قادهم إلى المقصلة.

جاءت المجموعة المكلفة باعتقال دانتون في منتصف الليل. عندما سمع خطاهم في الفناء، قام بتقبيل زوجته لويز مودعاً إياها. كانت باريس في حالة من الهيجان إثر اعتقال ابنها الثوري الأكثر جرأة وصديق دانتون، الشاب الشجاع كامي ديمولان، الذي حرّض الباريسيين على اقتحام سجن الباستيل قبل خمس سنوات. مع اعتقال دانتون أصبح أتباعه بلا قائد وتمّ التغلب عليهم بسهولة من قبل النظام السلطوي لروبسبيير ولجنته للسلامة العامة. أما النواب الضعفاء في المؤتمر الوطني، فقد انكمشوا مرتعدين حيث أصبحوا تحت تهديد مزدوج من روبسبيير وسان-جوست. تجرأ اثنان فقط من النواب وهما تاليان وليجاند، على التحدث (وتاليان هذا سيلعب في وقت لاحق دوراً حيوياً)؛ وقد قوبل تحذيرهم بصمت خجول. إذا كان جزءاً صغيراً فقط من النواب قد تصرف في ذلك الصباح، فإن معظم رؤوس البقية ستبقى على أعناقهم خلال الأشهر الثلاثة المقبلة.

تلا سانت جوست وثيقة الاتهام:

أيها المواطنون لقد تمّ اكتشاف مؤامرة دنيئة لإسقاط الجمهورية قام بها مهاجرون من مدينة كوبلنتس[36] والأسوأ من ذلك، أنهم يتلقون المساعدة من داخل هذه الجمعية، [وبذلك تمّ الربط بذكاء بين دانتون وانشقاق الجنرال دوموريز]. يجب ألا تمس هذه المؤامرة مسعانا المقدس مرة أخرى. يجب أن نتأكد من أنه لن يبقى أحد بيننا سوى الوطنيين الحقيقيين. لا يمكننا بناء جمهورية تقوم على المجاملات، ولكن يجب أن تقوم على أسس صارمة للغاية ومع أقصى قدر من التشدد ضد أولئك الذين خانونا. وأقول، يجب معاقبة جميع المجرمين، أياً كان منصبهم.

36- هذا يبيِّن مدى ضعف هذه الاتهامات. كان دانتون في الواقع هو الشخص الذي أرسل الملك إلى حتفه. كانت مدينة كوبلنتس هي مركز نشاط أنصار الملكية.

حمل كلامه نغمة شحذ السكاكين.

بالنسبة لمحاكمة دانتون، قام المتآمرون بتعيين شخصهم المفضل المدعي العام الثوري أنطوان فوكييه - تانفيل وهو الرجل الذي طارد الملك والملكة حتى الموت، وكما كان متوقعاً، لم يستقبل دانتون التهم الملفقة ضده عن طيب خاطر بل واجهها قائلاً: «أنا، دانتون، سوف أكشف القناع الآن عن ديكتاتورية تكشف عن وجودها...». قرع رئيس المحكمة جرسه ليقاطعه، لكن صوت دانتون الذي كان يجأر به كان يتخطاه ويصل مباشرة إلى الشارع، حيث الحشد الهائل الذي تجمع أمام المبنى. «أطلب من الشخص الذي اتهمني أن يتقدم إلى الأمام. فليظهر نفسه». كان دانتون ما يزال تحت الانطباع بأنه كان في مواجهة سان-جوست. «أنت، يا سان، ستجيب عن افترائك»[37] على أثر كلمات دانتون المليئة بالتحدي، انطلق الجمهور في تصفيق حاد.

كان دانتون، يتكلم بطريقة يفهمها الناس، وقاطع المدعي العام فوكييه-تانفيل.

أشار دانتون بإصبع سبابته الممدود إلى الجمهور. «اسألهم. اسأل الناس. إنهم يعرفونني». قوبلت كلماته بتصفيق أشد. «الشعب الفرنسي، هو الذي سيحكم عليّ بعد أن أوضح كل شيء لك ...»

في هذه المرحلة، أصيب فوكييه-تانفيل بالذعر. كان يعلم أن دانتون سيقوم في الواقع بذكر الأسماء، وأن المؤامرة المناهضة لدانتون كانت معرضة للفشل بسبب هذا الخطيب ذي الصوت «الجهوري». كان دانتون ببساطة خطيباً رائعاً للغاية وكان لا بدّ من تكميم فمه. صاح المدعي العام قائلاً: «Citoyen le president» أيها المواطن رئيس المحكمة «ملوحاً بذراعيه مثل طواحين الهواء لجذب انتباه المحكمة. وعلى النقيض من أي قانون ساري المفعول، طالب رئيس المحكمة بتأجيل الجلسة.

---

37 تظهر معلومات تفصيلية عن تلك الفترة أن دانتون ما زال لا يدرك من هو الشرير الفعلي.

ولتخوّفه من سير مجريات الأحداث، كان سان-جوست قد انسل خارجاً ليتباحث مع مستشاره.

في مواجهة كارثة وشيكة، تآمر كل من سان-جوست وروبسبيير لك خلص من وهم إجراء محاكمة عادلة من خلال تصميم قانون شرير لدرجة أنه ظل مَعلماً للظلم. عندما تمّ كشف البعد الكامل لمخططهم، فإن نذالتهم يجب أن يتمّ تذكرها كونها تمثل غدراً يستحق عقوبة أكبر من رعب المقصلة نفسها. عاد سان-جوست بسرعة ليوجّه خطبة رنانة إلى أعضاء المؤتمر الوطني: «أيها المواطنون، لقد نجوتم للتو من خطر جسيم. لسنا بحاجة إلى دليل آخر. فالتحدي والاتهامات البغيضة التي يوجهها المتهم [دانتوّن] ضد الممثلين المنتخبين لهذه الأمة تكفي لإثبات ذنبه»، ثم أجبر النواب المرتعدين من الخوف على القيام بخطوة عرفتها الأجيال اللاحقة باسم قانون 22 بريريال (10 حزيران)، وهو مرسوم لا يزال فريداً من نوعه في تاريخ التشريعات القانونية. وهو منع المتهم من حقه الأساس في الدفاع، حيث نص على أن الاتهام يعادل الإدانة. عندما قرأ رئيس المحكمة هذا القانون الجديد، أدرك دانتون أنه قد هزم. عندها فقط أدرك هوية خصمه العنيد الذي يقبع في الظل. زمجر دانتون صارخاً بأعلى من صوت جرس رئيس المحكمة: «يا روبسبيير اللعين، بقدر ما أنني على يقين من أنني سأموت هذا اليوم، فأنا متيقن أيضاً أنك ستتبعني إلى المقصلة!»

في تلك الليلة، خاطب روبسبيير أعضاء نادي اليعاقبة[38] لتبرير قانونه غير العادل: «كان دانتون من أخطر أعداء الوطن، فقد كان يعدّ مواطنينا بالإخلاص فيما هو يدفن ثقتهم بالدسائس والمكائد. كان يضحك عندما يسمع كلمة «الفضيلة». لقد تمّ تأسيس محكمتنا الثورية لمساعدة

38- كان النادي السياسي الأكثر نفوذاً خلال الثورة الفرنسية. وكانت نشأته على أيدي النواب المعادين للملكية، نما النادي إلى حركة جمهورية على الصعيد الوطني، تقدر عضويتها بحوالي نصف مليون أو أكثر. المترجم.

الثورة، وليس لإبطاء مسارها من خلال التكتيكات الدفاعية الصاخبة. أولئك الذين يمثلون أمامها مذنبون بجريمة واحدة فقط، وهي الخيانة العظمى. وهناك عقوبة واحدة فقط لها، وهي الإعدام».

اجتاحت باريس نوبة من الهيجان المروع (Grand gibier ce soir): هناك طريدة كبيرة هذه الليلة، وتجمعت الحشود حول آلة الطبيب جيوتن[39]. ظل دانتون حتى آخر لحظة كما كان دائماً، جريئاً ومتكبراً. في رحلته الأخيرة، في عربة السيد سانسون، لاحظ طفلة جميلة وهي تبكي فقال: «من المؤسف أنني لا أستطيع أن أطعن هذا المخصي روبسبيير». توقفت العربات التي نقلت دانتون وديمولان أمام اثنين من الأعمدة الخشبية المنتصبة. عكست شفرة الآلة أشعة شمس الغروب، وهي تميل منخفضة عبر حقول الإليزيه (Champs Élysées) وبجوارها انتصب تمثال هائل من الجص هو تمثال الحرية. عندما اختطف دانتون نظرة أخيرة إلى النصب الذي ساعد هو نفسه في وضعه هناك، هزّ رأسه بيأس. ومن دون لحظة تردّد واحدة، تسلق السلم الشاهق المؤدي إلى المنصة المرتفعة. ربما، جنح خياله للحظة من الزمن، إلى لويس السادس عشر وماري أنطونيت اللذين أرسلهما إلى هذه الآلة القاتلة. وألقى بنظرة من قمة المنصة نحو الجماهير الصامتة، التي سيطرت عليها حراب أفراد الحرس الجمهوري، استدار دانتون نحو السيد سانسون، الشخص الوحيد في البلاد الذي لم تتمّ مناداته بكلمة مواطن (citoyen): «اعرض رأسي على الناس. إنه يستحق ذلك تماماً». ثم هوى النصل على رقبته.

استمر الإرهاب الذي أعقب وفاة دانتون لمدة ستة عشر أسبوعاً؛ ثلاثة أشهر من إراقة الدماء العشوائية والخوف والاتهامات والإدانات. وبمنطق لا يرحم، جلب روبسبيير المحامي اللاهوتي الموت إلى نظامه السياسي. فحتى يوم سقوط دانتون، كان قد تمّ قطع رأس 116 شخصاً

39- المقصلة. المترجم.

فقط؛ ولكن بعد ذلك تمّ إرسال ثلاثة آلاف شخص إلى المقصلة. تمّ الاحتفاظ بسجل دقيق لجميع عمليات الإعدام اليومية، لكنه لم يأخذ في الاعتبار عمليات قتل الآلاف من الأشخاص التي ارتكبت في المقاطعات والبلدات النائية، مثل نانت وليون. كان أول من ذهب إلى المقصلة هم السياسيون الذين كان يرسل كل منهم الآخر إليها لينجي رأسه منها. ومنذ ذلك الحين، كانت عربات الموت تقدم باستمرار قائمة يومية بأعداد متزايدة. (كانت توجد في المطاعم، بجانب قائمة الأطباق التي تقدمها، قائمة بضحايا ذلك اليوم). حوكم عدد من العلماء، مثل: أنطوان لوران دو لافوازييه، أبو الكيمياء الحديثة، ومخترع المفردات الكيميائية والنظام المتري، مع عبارة بسيطة: «الجمهورية لا تحتاج إلى علماء». الضحية الأخرى كانت هي عالم الرياضيات العظيم والفيلسوف، الماركيز دو كوندروسيه الذي عانى من المصير نفسه.

وألقي القبض على أندريه شينيه، وهو شاعر ليبرالي، في قضية اشتباه بهويته. حيث كان المقصود بالحكم هو أخوه. لكن اعتقال أحدهم أفضل من لا شيء: «لقد وجدناه، ولم نجد أخاه»، وكانت حقيقة اعتقاله وحدها كافية لإرساله إلى المقصلة. كثيراً ما كانت عمليات الذبح لا مبرر لها لأنها كانت عشوائية. قُتلت الأرملة مايه (Mayet) في دفعة من خمسين شخص فقط لمجرد أن شخصاً ما اتهمها بأنها مدام دي مايه (Maillet) (وكلاهما ينطقان بالصيغة نفسها)، وهي سيدة من الطبقة الأرستقراطية. رفض المدعي العام فوكييه تنفيل نداء العفو عنها لكونها بريئة وعلق بعبارته: «بما أنها وصلت إلى هنا، فإننا سنعدمها أيضاً». لحق مصير مماثل بمدام كوتييه (Quetier)، وهي ربة منزل تشاجرت مع زوجها لكي يعطيها المال من أجل شراء مغزل جديد (كلمة المغزل بالفرنسية هي rouet) وقد قطع رأسها لكونهم اعتقدوا أنها امتدحت الملك (كلمة الملك بالفرنسية roi) وكلا الكلمتين لهما اللفظ نفسه.

أصبح قصر كونسييرجيري محطة توقفهم النهائي قبل الوصول إلى المقصلة. ولغرض التعامل مع الأعداد المتزايدة من السجناء، تمّ استخدام ساحة مسيّجة كمنطقة احتجاز. وصل الوضع داخل السجن المحصن إلى حدّ لا يوصف[40]. حُشِرَ المئات في زنزانات من دون تهوية، مع عدم وجود مراحيض أو مياه كافية. وكان من يطلب ذلك يسخر منه سجانوه قائلين: «لست بحاجة إلى ذلك، فمصيرك الموت». كان السجناء يتقاتلون فيما بينهم للحصول على مكان للنوم؛ تجمعت النساء الأرستقراطيات إلى جانب صبيان الأزقـة، يتقاسمن معهم البراغيث ورائحتهم. جُرِّد اللصوص النبلاء من قمصانهم وأحذيتهم. ولكن ما جعل الأمر لا يُطاق هو الخوف من المجهول الذي أطبق عليهم، والانتظار يوماً بعد يوم متى سينادون باسمهم. أصبح البقاء على قيد الحياة في ظل هذه الظروف أمراً لا يُحتمل منطقياً. بالنسبة للكثيرين أصبح نطق أسمائهم، بمثابة باعث على الارتياح. عندها يعرفون أن تعذيبهم الذهني انتهى أخيراً، لأنهم كانوا في القائمة في ذلك اليوم. كانت لحظات وداع السجن دائماً مثيرة. يُفْصَل الأزواج عن زوجاتهم وتُفرّق الأمهات عن أطفالهن. أدّت المحاكمات إلى زيادة هائلة في النشاط البيروقراطي، وتدقيق وشطب الأسماء، وتنظيم سجلات للممتلكات المصادرة. كان يسمح للمدانين الاحتفاظ بزوج واحد من الأحذية وقطعة من الملابس الخارجية. وقد جرّدتهم النسور البشرية التي كانت تحيط بالقبور حتى من ذلك وبيعت «قمصان السيدات» في السوق السوداء. وأمر روبسبيير، الذي لم يعجبه أنه أصبح متفرجاً لاإرادياً على الموكب اليومي لعربات الموت المارة بجوار نافذته، إلى نقل المقصلة إلى مكان آخر هو Place du Trône (الذي بات يعرف باسم ميدان الأمة).

انطفأت الأضواء في مدينة النور. وهجر المرح ومظاهر الحياة مدينة

40- هناك عدد قليل من الروايات الفعلية عن تلك الأيام لأن عدداً قليلاً جداً من السجناء عاشوا ليحكوا عنها.

باريس. وماتت الثقافة وهي واقفة. وفيما يخص المسرحيات التي ألّفها (الملكي) «موليير» والمشاهد الساخرة التي قام بتأليفها «فولتير» فكان يتمّ حظرها أو تغييرها لتقدم رسالة ثورية. وجد الناس ملاذهم في شرب الخمر؛ تمكن شخص سكران من التسلل داخل قاعة المحكمة وصاح: «(Vive le Roi) عاش الملك» وسقط من الشرفة ميتاً. كانت أكثر الكائنات حقارة من بين جميع المخلوقات هن «tricoteuses» (الحائكات) اللواتي كن يجلسن قرب المقصلة وهن يقمن بالحياكة ويهتفن عندما تقع رؤوس المعدومين في السلة[41]. أشعل الموت جنوناً جنسياً، تمّ التعبير عنه فيما بعد بنوبات من الشهوات الجامحة. نشأ طقس جديد وهو وجوب حضور «العشاء الأخوي»، حيث كان على الجميع كلّ في دائرته[42]، أن يحضر ويجلب معه الطعام. إذا لم يحضروا ما يكفي، فإنهم قد يسيئون إلى رئيس الحي الذي كان من حزب اليعاقبة، وإذا جلبوا الكثير سوف يتهمون برغبتهم في تخزين الأغذية. كان عليهم أن يحيطوا بعضهم البعض بأذرعهم ويغنون فرحين كما لو كانوا في حانة كبيرة في ميونيخ، وكان كل ذلك يتمّ مراقبته من قبل مخبري روبسبيير.

«السلطة مفسدة، والسلطة المطلقة تفسد بشكل مطلق للغاية». يمكن تفسير «ثلاثة أشهر» من حكم روبسبيير (النزيه) من خلال هذه العبارة. وقعت لجنة السلامة العامة، وهي أداته لتحقيق الإرهاب، في حالة من الفوضى. كان اثنان من أهم أعضاء اللجنة، وهما سان-جوست وكارنو، على خلاف. وتآمر وراء الكواليس شخصان آخران، هما كولو ديربوا وبيلو-فارين. استفاد روبسبيير من انقساماتهم ليجعل نفسه ديكتاتوراً بلا منازع. واستخدم سان-جوست ومساعداً آخر له، وهو كوثون الأعرج، لتهيئة إرسال مجموعة جديدة من المتهمين إلى المقصلة. ضمن ما بات يُعرف باسم (القائمة).

41- من وصف للكاتب آبي كاريشون لحادثة إعدام دوقة نويليه.

42- تقسيم إداري فرنسي يشبه الحي. المترجم.

كان المسعورون (enragé) وأولئك الغوغاء الوقحون من اللامتسرولين (sans-culottes)، يشكلون تهديداً لأي شخص في السلطة. ورغم قلة عددهم، كانت استراتيجيتهم الأساسية تقوم على الاستفزاز. حتى بعد أن اختار قائدهم جاك رو أن يقتل نفسه بدلاً من أن يصعد السلم نحو المقصلة، استمر أتباعه على أن يكونوا مزعجين ومزعزعين للأمن لدرجة أنه لم يكن أمام النزيه l'Incorruptible (المقصود روبسبيير) أي خيار سوى مواجهتهم. أدى اكتشاف جاسوس يعمل لصالح روبسبيير من بينهم إلى بثّ إشاعة عن وجود قائمة سوداء بأسماء أشخاص معينين. بمجرد أن تمّ زرع الفكرة القائمة في أذهانهم، ازدادت الشكوك في أوساط المتطرفين. بدأ الإجهاد يظهر بشكل واضح على روبسبيير، وبدأت أعصابه تتوتر. كان كل ما يحتاجه الأمر هو رجل ذكي وماكر للإطاحة بالطاغية. وقد وصل مثل هذا الرجل إلى باريس في اليوم التالي لوفاة دانتون.

لا يُعرف سوى القليل عن جوزيف فوشيه، أحد أروع الشخصيات في الثورة. كانت الدسائس هي سبب وجوده. كان مسؤولاً إلى حدّ بعيد عن وفاة لويس السادس عشر كما هي مسؤوليته عن سقوط نابليون. كان أستاذاً في المناورات في ست حكومات متتالية، من العائلة المالكة إلى الجمهورية، من الطاغية إلى الإمبراطور ومن ثم العودة إلى الملوك، وخان جميع من تعهد لهم بالولاء. عندما واجهه نابليون: «آه، فوشيه، ألم تكن أنت من صوّت لصالح موت ملكك؟»[43]، فأجابه وزيره، الذي أنعم عليه بلقب دوق أوترانتو: «هذا صحيح، مولاي، وكانت تلك أول خدمة قمت بها لجلالتك».

راقب فوشيه الصراع على السلطة بين دانتون وروبسبيير من مسافة

---

43. وكان من المقرر إعلان التصويت النهائي على حكم الإعدام الصادر في حق لويس السادس عشر بصوت عال من قبل كل نائب. وهذا كان لفصل الحمائم (الملكيين) علناً عن الصقور (الجمهوريين).

آمنة من مدينة ليون. وعلى مدى عدة أشهر، شهدت هذه المدينة الواقعة على نهر الرون تمرداً مفتوحاً ضد إملاءات اليعاقبة الباريسيين، صدرت الأوامر إلى فوشيه بالإشراف على قمعها. في شتاء عام 1793، استُدْرِج الآلاف من أبناء مدينة ليون إلى خارج بوابات المدينة وقتلوا بنيران المدافع. أُلقيت جثثهم في نهر الرون لتطفو في اتجاه مجرى النهر لتبعث رسالة تحذير مروعة. تمّ محو مركز المدينة وفق منطق مميت: «لا شيء سوى استخدام الرصاص يمكن أن يمثل التعبير الكامل عن القدرة الكلية للشعب»[44].

بالنسبة لشخص يدبر المكائد بدم بارد مثل فوشيه، كان الحديث عن فضيلة إنسانية أشبه برواية حكاية جدات قديمة. وهذا هو السبب في أن لجنة السلامة العامة قد عيّنته مع كولو ديربوا للإشراف على تطبيق «القدرة الكلية للشعب». كان فوشيه يحتقر روبسبيير. مع إعدام دانتون، الذي كان يشاطره أفكاره الرئيسة، عرف فوشيه أنه سيكون التالي في قائمة الإعدام، وأن الوقت قد حان ليقوم بضربته. في اليوم الذي عاد فيه من باريس، اختفى من المشهد العام ليعمل بجد من وراء الكواليس. وبأقصى قدر من المهارة استخدم أسلحته الرئيسة: المباغتة والمكيدة.

تلقى روبسبيير الصدمة الأولى عندما اكتشف أن جوزيف فوشيه قد أقام عدة تحالفات ليجعل نفسه رئيساً منتخباً لنادي اليعاقبة. بدأ روبسبيير يصبّ اللعنات على نفسه. لقد استهان كثيراً بتقدير إمكانيات هذا الخصم. أولاً جعل اليعاقبة يطاردون فوشيه؛ بعد ذلك دعا إلى تنظيم مهرجان للاحتفاء بالإله (Féte d'Être Suprême)[45] والذي مثّل فيه الشخصية الرئيسة، ليس باعتباره رئيساً للجنة السلامة العامة الملطخة أيديها بالدم[46]، ولكن في دوره الجديد كحاكم ديكتاتور. أقيمت احتفالات كبيرة في حدائق قصر

44- عن إدوارد هيريوت Lyon n'est plus.

45- وهذا الاحتفال كان جزءاً من عبادة الإله وفقاً للديانة الربوبية الوطنية. المترجم.

46- كان اليوم الذي جرى فيه المهرجان أيضاً هو اليوم الوحيد الذي لم تستخدم فيه المقصلة في عهده الدموي.

التويلري. ارتقى روبسبيير هرماً مصنوعاً لأغراض المهرجان وسط هتاف حشد من الغوغاء المسعورين. وقف لوحده وكان بارزاً بوضوح، في القمة باعتباره كبير كهنة المهرجان. لم يلتزم بالحكمة القديمة القائلة بأن «من يبرز رأسه فوق بقية الرؤوس يكون عرضة للقطع» وفي رمزية فريدة من نوعها إلى الأزمنة الثورية، أضرمَ النار في تمثال يرمز إلى الرياء والنفاق. ثم ارتفعت صيحات الحشود (اووه) و(االه) عندما ارتفع من وسط الرماد تمثال جديد، يمثل الحكمة والفضيلة[47]. وكان هذا الحدث يشير إلى مراسم تتويج الطاغية. الذي مات بعد مرور شهر واحد.

عندما مرّر روبسبيير قانون 22 بريريال فإنه عزّز من طغيانه. وقد نص هذا القانون المعيب على أنه: «لا يحق للمتهم استئناف الحكم في قضيته إلّا بعد أن تنظر لجنة السلامة العامة ولجنة الأمن العام في القضية». وهكذا تُرك القرار بالنسبة إلى من يجب أن يوجّه الاتهام إلى اللجنتين. وبما أن روبسبيير كان يسيطر على اللجنتين، فإنه لم يكن آمناً من الملاحقة القضائية فحسب، بل كان بإمكانه أيضاً أن يقرّر نتيجة المحاكمات. لم يحظَ هذا التهديد القاتم لسلامتهم الشخصية بموافقة النواب. فلم يكن أحد متأكداً من أنه لن يكون التالي في «القائمة». هذا الخوف صبّ في مصلحة فوشيه. وعن طريق استغلاله، قام بتوحيد أولئك الذين كانوا معاديين لبعضهم البعض. كان يكمن مفتاح مخططه في وجود رجلين، هما كولو ديربوا وبيلو- فاران، وهما عضوان في لجنة السلامة العامة. وقد جازف بالقول: «عندما تسلمون رأسي إلى روبسبيير، من سيكون هناك ليحميكم؟» بمجرد انضمامهما إلى المؤامرة، لن يستطيعا التراجع. كان الوقت قد بدأ ينفد، لقد أعلن روبسبيير عن وجود تهديد ينذر بسوء في نادي اليعاقبة: «يجب على جميع المواطنين الطيبين أن يكونوا حذرين من المكائد». وقد شدّد في لهجته على كلمة «جميع». كانت المواجهة على وشك أن تبدأ.

47- الرسام ديفيد، الذي سيصبح فنان البلاط في عهد نابليون، هو من صمم التماثيل.

السلامة العامة. عمل سان-جوست كثيراً، وخطّط للمواجهات الحاسمة التي كان يعرف أن الصباح لا بدّ وأن يجلبها معه.

كان المتوقع أن يكون يوم التاسع من ترميدور من السنة الثانية (الذي صادف 27 تموز 1794) حاراً ورطباً. كانت هناك غيوم كثيفة تحوم فوق باريس. قبل افتتاح الجلسة بوقت طويل، امتلأت قاعة وشرفات مبنى المؤتمر الوطني وفاضت بالنواب والصحفيين والمؤيدين؛ وقد انضم الصاخبون والفضوليون إلى الحشد. استخدم فوشيه ورقته الرابحة. وقام بتدبير عملية ترشيح كولو ديربوا رئيساً لجلسة ذلك اليوم. دخل روبسبيير، يرافقه سان-جوست وكوتون، إلى المبنى وسط هتافات من أنصار حزب الجبل. (كانت هذه إشارة إلى ترتيبات الجلوس: خصص الطابق الأرضي للنواب الليبراليين وكانوا يعرفون بحزب السهل، وجلس اليعاقبة المتطرفون على الدرابزين، وكان يطلق عليهم حزب الجبل). ولوح روبسبيير بحماسة، واثقاً من انتصاره الوشيك، واتخذ لنفسه مقعداً في منتصف مقاعد حزب السهل، أو الوسط؛ للحصول على دعم إضافي من المعتدلين المترددين. كانت خطته تستلزم توقيتاً دقيقاً. كان سان-جوست يقوم بمهمة «التهيئة» قبل أن يشنّ روبسبيير هجومه على فوشيه ومؤامراته.

من تلك اللحظة، بدأت تتكشف الأحداث بسرعة البرق. تقدم سان-جوست إلى المنصة، ولكن قبل أن يتمكن من نطق كلمة، صرخ تاليان: «أنا أطلب الحديث!» فوجئ سان-جوست بهذه المقاطعة لحديثه. عندما استرد صوته، قطع عليه الطريق رئيس الجلسة كولو ديربوا بجرسه. وبطريقة فظة، دنا تاليان الضخم من سان-جوست وهو في المنصة وصرخ عالياً: «أنا أطالب بأن تكون الإجراءات علنية». عندها نهض شركاء تاليان في المؤامرة وبدؤوا يرددون: «علنية!» قبل أن تتاح الفرصة لسان-جوست أن يتكلم، أخذ بيلو فاران مكان تاليان. وأشار إلى روبسبيير: «هذا الرجل يخطط لقتل أعضاء المؤتمر الوطني!»

صرخت مجموعة من مؤيدي فوشيه المنظمين جيداً: «(À bas le tyran!) يسقط الطاغية!»، مما أدى إلى حدوث ارتباك بين صفوف نواب حزب الجبل ودعم خجول من نواب حزب السهل.

أظهرت خطوة فوشيه المفاجئة أنه بعد كل الذي جرى كانت هناك فرصة لإنقاذ أعناقهم. أما التائهون، أولئك الذين كانوا يصوِّتون دائماً حسب الطريقة التي تجري فيها رياح السياسة، فقد انضموا إلى جوقة الذين يصرخون «يسقط الطاغية». فقد روبسبيير صوابه كان يطبق يديه ويفتحها. كان في حالة من اليأس وهو يرى تحالفاته تتفكك. ومن أجل إنقاذ رؤوسهم، بدأ بعض اليعاقبة في تبديل المعسكر الذي يدعمونه. استل تاليان خنجره، وبدأ يلوح به بأداء تمثيلي فوق رأسه وهو يصيح «(À bas le tyran!) يسقط الطاغية!».

قفز روبسبيير متجهاً نحو المنصة، ولكن منعه جدار من المتآمرين من أعوان فوشيه. وعندما صرخ ضاع صوته وسط صوت جرس رئيس الجلسة. ساد القاعة هرج ومرج. كان جميع النواب يصيحون سواء من كانوا في الطابق الأرضي أو في الشرفات، ويدقون الأرض بأقدامهم، كان الرئيس يصرخ ويهزّ جرسه. ازداد دق الأرض بالأقدام وتحوّل إلى ما يشبه دق الطبول، ومن ثم تحول إلى تصفيق متناغم ترافقه هتافات يسقط الطاغية (À bas le tyran) وبأنفاس متقطعة وشفاه مزرقّة، ظل روبسبيير يكرر نداءه اليائس: «اسمحوا لي أن أتكلم، واسمعوني». لكن صوته لم يكن أعلى من الضجة. بدأ رنين جرس رئيس الجلسة كولو يؤدي غرضه في النهاية وانخفض صوت الضجيج. كان روبسبيير، الذي كان يوازن بين كلماته بعناية كبيرة، غاضباً من تحوّل الأحداث. وكانت الكلمات الأخيرة التي كان يقولها أمام النواب هي: «(Donnez moi la parole, Président des Assassins) دعني أتحدث، يا زعيم القتلة». هذه الإهانة، ووصف نواب المؤتمر الوطني بأنهم مجموعة من القتلة المأجورين، تمت الإجابة عليها بصوت واحد اخترق

الضجيج مثل صافرة إنذار. «أنت القاتل وإن أشباح دانتون وديمولان تطاردك»!

صاح تاليان: «هذا الوحش أهان نواب الشعب».

«(À bas le tyran!) يسقط الطاغية!»

صعد، نائب آخر، وكان لوشيه على مقعده، ولوّح بيده لتهدئة الحشد، ثم قال الكلمات التي لم يجرؤ أحد على أن يتلفظ بها ولكن الجميع كان يتوق إلى سماعها: «أنا أطالب باعتقال روبسبيير!».

«اعتقاله!» علت أصوات هادرة من نواب حزبي السهل والجبل. وفي خدعة خفيفة لإضفاء شرعية مفترضة على أمر الاعتقال تمّت الدعوة للتصويت عليه، وجد الرئيس الكثير من الأيدي مرفوعة مما جعل العدّ غير ضروري. لم يكن هناك امتناع عن التصويت؛ حتى اليعاقبة أعوان روبسبيير تخلوا عن زعيمهم. أحاط بـ«النزيه» ظلام داكن في منتصف النهار؛ كان يحدق بعينيه وهو لا يصدق أنه يقترب من الموت. ارتفعت الضوضاء. وبدأ كولو ديربوا يقرع جرسه بشكل محموم: «لقد أصدرت أمراً بالاعتقال الفوري للمتهمين بالخيانة: روبسبيير، وسان-جوست، وكوتون...» لقد تمت الإطاحة بالطاغية.

وسرعان ما انتقل التوتر الذي سيطر على جلسة المؤتمر الوطني إلى بلديات باريس. أوفد اليعاقبة رسلاً إلى الأحياء لتجميع «مجموعة من الرجال والنساء الأقوياء» في(Place de la Maison-Commune) (مقر الكومونات) وبدعم من مدافع الحرس الوطني، سيهتمون قريباً بأمر نواب المؤتمر الوطني المتمردين. كان يقودهم، فرانسوا هنريوت، الجنرال في الحرس الوطني في باريس، وكان شخصاً متبجحاً وسكيراً على الدوام. بدأ حياته المهنية العسكرية كخادم لضابط ملكي قبل أن يعمل قاتلاً مأجوراً لصالح جان بول مارا. وبطلب من مارا قام في حزيران 1793، بجمع حشد غوغائي لاقتحام مبنى المؤتمر الوطني، والإطاحة بالجيروندیين، وتثبيت اليعاقبة. وبعد بضعة أيام، قُتل مارا وسرعان ما حول هنريوت ولائه إلى

روبسبيير الذي عيّنه رئيساً للحرس الوطني. في الليلة التي سبقت التاسع من ترميدور، كان قد أكد لروبسبيير أنه سيوجه مدافعه نحو المؤتمر الوطني «ويقصف هؤلاء الخونة ويرسلهم إلى الجحيم».

إن ما حدث بعد ذلك لا يمكن تفسيره إلا من حيث الطبيعة المقدسة لذلك التقليد الفرنسي، وجبة العشاء. في خضم هذا الاضطراب الخطير، أعلن المؤتمر الوطني عن استراحة عشاء لمدة ساعتين! واستغل عمدة باريس، فلوريو، وهو من أتباع روبسبيير الأقوياء، الاستراحة التي استغرقت ساعتين لجمع قوة تضم الآلاف من أنصاره المسلحين احتشدوا أمام مقرّ البلدية. كان زعيم الحشد، القائد هنريوت مخموراً تماماً وغير قادر على نطق كلمة واحدة متماسكة. فقفز على حصانه وصار يعدو بسرعة، وهو يصرخ بجنون ويلوح بسيفه، واتجه إلى قصر التويلري، حيث تمّ إنزاله عن حصانه بشكل فظ، والإمساك به، ثم ألقي به في أحد المخازن.

عندما سمع فلوريو باعتقال قائد حرسه أثبت أنه أيضاً لم يكن استراتيجياً عسكرياً. فبدلاً من طلب قوة لإنقاذ روبسبيير، أرسل 200 من رجال الكومونة المسلحين إلى مبنى المؤتمر الوطني لتحرير ذلك السكير. كان النواب قد عادوا حينها من مأدبتهم واشتبكوا مع الحشد الذي جمعه فلوريو. لم يصب أحد بجروح خطيرة، لكن ذلك كان كافياً لإظهار قوة حشد باريس. تمّ إحضار هنريوت وقد كان ثملاً وسط أجواء احتفالية إلى مبنى البلدية، حيث المكان الذي نصب فيه رجال مدفعيته قطعهم الاثنين والثلاثين؛ وعدا عن ذلك، فهم لم يقوموا بأي مبادرة على الإطلاق. خلال تلك الساعات الحاسمة، كان مؤيدو روبسبيير يملكون تفوقاً ساحقاً في المدافع - وهي ورقة رابحة كان من المؤكد أنها ستحسم القضية لو كان بإمكانهم العثور على قائد عسكري يتولى المسؤولية، لأن هنريوت قد غادر خلسة إلى فندق شيفال فيرت.

بالنسبة للنواب، كان من الضروري معالجة هذا الوضع الخطير

بسرعة، خاصة وأن أولئك الذين كانوا يحرسون روبسبيير شعروا بالرعب من أولئك الرعاع الذين تجمعوا وسمحوا له بالخروج. ولذلك أصدروا مرسوماً لتعديل ميزان القوى. أعلن المؤتمر الوطني أن روبسبيير شخص خارج عن القانون؛ وهذا يعني أن أي شخص قد جاء لمساعدته سيتعرض للاعتقال التلقائي والإعدام بدون محاكمة. فوّض النواب بول باراس، مسؤولية تنفيذ القرار. تمّ إرسال البرقية الأولى إلى بلدية المدينة لاستدعاء فلوريو للمثول أمام المؤتمر الوطني. أعلن رئيس البلدية: «أنا قادم، وسأحضر الناس معي». لكن سائر الرسل حققوا نجاحاً أفضل: من الثماني والأربعين بلدية، لم تستجب سوى ثلاث عشرة فقط لدعوة فلوريو للدفاع عن مبنى البلدية، فيما اتخذت سبع وعشرون بلدية موقف المتفرج. عندما لاحظ قادة الأحياء الأخرى حدوث تغيّر في مجرى الأحداث، أعلنوا تأييدهم للمؤتمر الوطني. وبينما كان المندوبون لا يزالون غير متأكدين من النتيجة ويعيشون في رعب مستمر من حشود غوغاء باريس، فإن أولئك الغوغاء كانوا يتجولون بلا هدف وينتظرون الأوامر. وفي الوقت نفسه، تغيّرت أحوال الطقس وتجمعت السحب الرعدية فوق المدينة.

لكن أين كان روبسبيير؟ في أعظم أزماته، تغلب عليه أيضاً التعب الذي كان قد أودى بالملك إلى الهلاك. خلال هذه الساعات الحيوية من التناحر والمناورة، فإن الطاغية الذي استفاد دائماً من إخفاقات خصومه أصبح عاجزاً عن الحركة بسبب الصدمة. وفي حين أن أنصاره كانوا في انتظاره في قصر بلدية باريس Hôtel de Ville، فإن روبسبيير الخائف والمشوش رفض مغادرة ملاذه في باريس. والحشد بدون زعيم مثل دجاج بلا رأس. فقد بدؤوا بالشرب بإفراط، واندلعت معارك بينما انتشر الخبر بأن سكان الدوائر arrondissements[48] قد غيّروا ولاءهم. أهدر وقت ثمين قبل أن يصل روبسبيير، وسان-جوست

48 نوع من أنواع التقسيمات الإدارية في فرنسا. المترجم.

وكوتون إلى قصر «بلدية باريس» للانضمام إلى «فلوريو» و«هنريوت» (الذي جُرجر من الحانة التي كان يسكر فيها). نفد حظ روبسبيير مرة أخرى في هذا اليوم المشؤوم، فقد تدخل الطقس هذه المرة. هبّت عاصفة رعدية شديدة للغاية على المدينة وقد خلّدها تاليران العظيم بعبارته الشهيرة: «المطر هو ثورة مضادة». فقد أغرق الرعاع وجعلهم يهرولون نحو أقرب حانة. كانت تمطر في الخارج وكانوا يسكرون في الداخل. أما الميدان فقد كان فارغاً.

في تلك الأثناء وصل السياسي بول بارا بصحبة خمسين من رجال الدرك. لا يمكن تفسير مظاهر العنف التي حدثت بعد ذلك إلّا بعد أن يُنظر إليها في سياق الإرهاب الوحشي الذي مارسه روبسبيير على المدينة والأمة. حينها سيفعل به مثلما سبق له أن فعله بالآخرين. تمّ جمعه هو ورفاقه في غرفة في الطابق الأول من قصر بلدية باريس Hôtel de Ville، فُتِحَ الباب بقوة، ودوى صوت إطلاقة نارية، وهشّمت رصاصة مسدس فك روبسبيير[49]. سقط رأس الديكتاتور على الوثيقة التي كان قد وقّعها للتو، والتي أمر فيها الميليشيا – التي أطلق أحد أفرادها النار عليه للتو – أن تهرع لنجدته[50].

اندفع أوغستين روبسبيير، شقيقه، نحو نافذة مفتوحة وألقى بنفسه في الفناء، تكسرت العديد من عظامه في تلك العملية لكنه بقي على قيد الحياة.

سحب جوزيف ليبوا مسدساً من حزامه. توسل إليه سان–جوست: «اقتلني أولاً، mon frère. يا أخي». رد عليه ليبوا: «Pauvre con أيها الأحمق الغبي، عندي أشياء أكثر أهمية للقيام بها». رفع السلاح نحو رأسه وفجر دماغه. اختبأ كوتون الأعرج تحت الطاولة؛ وجده رجال

49- زعم أحد جنود الدرك ويدعى ميردا أنه هو من أطلق النار ولكن لم يتم إثبات ذلك أبداً.

50- هذه الوثيقة الملطخة بالدم، وكذلك الطاولة التي وقّع روبسبيير الوثيقة عليها، موجودة في متحف كارنافاليه في باريس.

الميليشيات وأنزلوه عن الدرج. وعثروا على هنريوت وكان ثملاً بعد أن خرج من إحدى النوافذ، وسقط بشكل خفيف على كومة روث حيث كان ينام كأنه في غيبوبة إلى أن سمعه أحد الدرك وهو يشخر. استيقظ بعد أن لكزته حربة أحد الجنود وتلقى ضرباً شديداً لدرجة أن إحدى عينيه انطفأت.

مع ظهور أول خيط ضوء ليوم العاشر من ترميدور (المصادف 28 تموز 1794) كان الرجال الذين أوقعوا فرنسا في قبضة الإرهاب مجرد مجموعة حزينة من الأطراف المحطمة والأوجه الملطخة بالدماء. استشعر الغوغاء هبوب رياح جديدة فسرعان ما بدّلوا مواقفهم. في المؤتمر الوطني، قدم بول بارا عرضاً تمثيلياً حينما صاح قائلاً: «الخائن روبسبيير في الخارج». هذا الإعلان جعل النواب يندفعون بالهتافات. أعلن رئيسهم: «مكانه ليس أمام هذه الهيئة الموقرة، ولكن في ميدان الثورة». استقبل إعلانه بحفاوة. وبهذه المناسبة، سيتم إعادة المقصلة إلى ساحة الكونكورد.

تمّ اقتياد روبسبيير وهو يعاني من جروح بالغة، وتمّ تثبيته على لوح خشبي، حيث كانت ذارعاه تتدلى من الجانبين فيما كانت قدماه تتكشطان وهما تمران عبر الحصى والحجارة. في لجنة السلامة العامة، وُضِعَ الخائن روبسبيير على الطاولة نفسها التي كان الدكتاتور يستخدمها وهو يتمتع بالسلطة المطلقة. اصطف حشد من الناس أمام المنظر المؤسف. كان ذقنه المهشم مربوطاً بقطعة قماش منقوعة بالدماء، فيما تدلت جواربه الحريرية على كاحليه، فيما كان يتناثر الدم على معطفه الحريري ذي اللون الأزرق الفاتح. وبات الذين كانوا بالأمس يمتدحونه وأطلقوا عليه لقب «النزيه» يلعنونه اليوم واصفين إياه «بالغول». نظر إليه رجل عجوز كان قد فقد ابنه خلال عهد الإرهاب. وقال: «نعم، يا روبسبيير، إن الله موجود».

عند الظهر، تمّ نقل روبسبيير وجلاوزته البالغ عددهم اثنين وعشرين

فرداً ليمثلوا أمام المحكمة الثورية. ووفقاً للقانون، الذي كان هو نفسه قد حرّض على إقراره لإسكات دانتون، كان المدعي العام فوكييه تانفيل (الذي كانت أيامه معدودة) لا يفعل سوى أن يقرأ أسماءهم ويدين كل واحد منهم ويرسله إلى المقصلة. «على كل متهم أن يقف. كوتون، فلوريو، هنريوت، روبسبيير، سان-جوست...» أولئك الذين لم يستطيعوا الوقوف سحبهم رجال الدرك من أقدامهم. في وقت متأخر من بعد الظهر، تمّ تحميل الأشخاص الثلاثة والعشرين في ثلاث عربات. كان في العربة الأولى سان-جوست، وكان لا يزال بوضع جيد ولم يصبه أي أذى، يرتدي بنطلوناً قصيراً بني اللون وقميصاً أبيض، منتصباً مثل منارة في بحر من اليعاقبة الذي كان يسيل لعابهم. على الرغم من أن الكثير من الباريسيين يكرهون هذه الشخصية الباردة والمتعجرفة، فإنه ذهب إلى حتفه في جو من النبل. لم ينطق بكلمة في دفاعه. مستلهماً عبارة شاتوبريان: «الصمت فقط هو الذي يمثّل العظمة، أما الباقي فهو مهانة».

كان على رجال الدرك أن يحملوا روبسبيير إلى العربة الثانية وجعله يجلس على لوح خشبي.

كانت هذه طريقة فوشيه ليظهر للناس أن روبسبيير سيلاقي حتفه فعلاً. أما العربة الأخيرة فقد وضع فيها هنريوت الذي كان يغطيه الروث. وإلى جانبه كان ينكمش مرتعداً كوتون، وهو يصرخ معلناً براءته. اتخذ الموكب الطريق الذي كان يستعمله الباريسيون كثيراً وقد أطلقوا عليه اسم Via Dolorosa فيا دولوروسا[51] أو درب الآلام في منزل آل دوبلاي، حيث تآمر روبسبيير ضد العديد من منافسيه[52]، كانت الحائكات المرعبات

51 يبدأ هذا الطريق من البوابة الرئيسة لقصر كونسيرجيري، عبر نهر السين من خلال الجسر الجديد بونت نيو، ثم على طول شارع سانت أونوريه المؤدي إلى ميدان الكونكورد.

52 خوفاً من إلقاء القبض عليه، انتقل روبسبيير إلى المنزل رقم 398 شارع سانت أونوريه، في 17 تموز 1791. يوجد مكان هذا المبنى اليوم كافيه روبسبيير Café le Robespierre.

ترقص من حول هذا الشخص المحكوم عليه بالإعدام. وحينها صرخت امرأة ثكلى بأحد أبنائها: «أيها الشيطان، ستنصبّ لعنة جميع الأمهات على رأسك». كان الآلاف قد تجمعوا في ميدان الثورة Place de la Révolution ليشهدوا نهاية الطاغية. وفوقهم كانت تلوح أداة روبسبيير الخاصة بالإرهاب: la guillotine المقصلة. كان اليعاقبة يسيرون واحداً بعد الآخر، لمواجهة الجلاد السيد سانسون. كان سان-جوست الوحيد الذي حافظ على كرامته وصعد السلم ليواجه الموت بتلك اللامبالاة الجامدة التي جعلت منه الشخصية الأكثر غموضاً في الثورة. كان على الجميع أن يحتشد فوق اللوح الملطخ بالدماء. كان من يحمل التسلسل الحادي والعشرين في «القائمة» لذلك اليوم هو l'Incorruptible (النزيه)، ماكسيميليان روبسبيير. خيّم الصمت فوق الميدان، أرخى الرجال من قبضتهم على عصيهم، ورسمت النساء إشارة الصليب: «هذا مصير الشيطان». كانت الأنظار مثبتة على المنصة المرتفعة والشفرة البراقة. تمّ سحب جسد روبسبيير المحطم فوق السلم، وكانت قدماه تتعثر في كل خطوة يخطوها. من خلال وجهه الملفوف بالضمادات، كان يمكن رؤية عينيه تحدقان في السماء الرمادية. ورغم أنه لم يكن فاقداً للوعي لكنه كان متعباً إلى درجة عدم الاهتمام بما حوله. تدلّت ركبتاه مما جعل مساعدو الجلاد يتركونه يتمدد هناك، ليمثل رمزاً للطاغية المخلوع، قبل أن يربطوه إلى اللوح الخشبي. مزّق أحد مساعدي الجلاد الضمادة المنقوعة بالدماء من فكه المحطم. صرخ روبسبيير من الألم، أشار سانسون لهم بإيماءة قصيرة... مال اللوح إلى الأمام حتى استقر بين اثنين من القوائم المصنوعة من خشب البلوط... صدر صوت مكتوم مع سقوط مثبت الرقبة الخشبي في مكانه... كان هناك تردد للحظة من الزمن... ساد الصمت التام... سحب الجلاد سانسون الرافعة وهوت شفرة المقصلة. سمع الجميع همسها. سرت تنهيدة عبر ميدان الثورة فقد سقط الطاغية في مزبلة التاريخ.

لقد أطيح بالديكتاتور الذي كان يعتبر نفسه معصوماً عن طريق انقلاب عسكري حدث بسرعة مذهلة. كان هو الذي عاش متبجحاً في باريس أيام الثورة، التي لم يشارك في صنعها. وتلك المهارة التي جعلت من «النزيه» شخصية رائعة في صفوف المعارضة وداهية في تنظيم العصيان لم تكن مناسبة للقيادة الدائمة. وقد تجاهل حقيقة أن الجمهورية، بقواها المتضاربة كانت بحاجة إلى الشرعية أكثر مما كانت الملكية بحاجة إليها. والإرهاب الذي أطلقه قبض روحه في النهاية.

كان آخر ضحايا عهد الإرهاب هو صبي في العاشرة من عمره، حكم عليه بالموت البطيء. وانتهت معاناته أخيراً في 8 حزيران 1795. في ذلك اليوم، أعلن رسمياً عن وفاة الملك غير المتوج لويس السابع عشر في سجن المعبد.

لكن لماذا «أعلن عن وفاته رسمياً»؟ لن يكتمل أي سرد لهذه المأساة بدون الإشارة إلى «لغز المعبد». ما هي الهوية الحقيقية للفتى الذي مات في ذلك السجن؟ هل كان ولي العهد، لربما كان أكثر إنسانية وضع هذا الطفل المسكين مع أمه ليتخلص من بؤسه، بدلاً من جعله يعاني من الآلام لمدة سنتين.

في ربيع عام 2000، تمّ إجراء عملية تطابق للحمض النووي بين خصلة من شعر الملكة وقطعة من قلب الصبي. وتبين أنه كان بالفعل لويس السابع عشر، ابن الملكة.

يتعلق اللغز أساساً بخمسة أشخاص. ملك وهمي يبلغ من العمر عشر سنوات؛ وسجّانه الإسكافي سيمون، وروبسبيير واثنان من اليعاقبة هما هيبير وشوميت، الذين دخلوا غرفة الملكة في سجن المعبد وأخذوا الطفل منها. وبعد أن تمّ اقتلاعه من ذراعي أمه، قاموا بحبسه في زنزانة صغيرة موبوءة بالفئران من دون مرحاض، مع لوحة مسمرّة على النافذة لمنع دخول ضوء النهار. وقد تعرض للضرب على أيدي سجانيه عندما رفض أن يغني أغنيات بذيئة، ولم يعط سوى حساء أسود كطعام له،

وترك للنوم مع برازه. حوّل سايمون الإسكافي طفلاً سعيداً ومرحاً إلى مخلوق غبي لم يعد يتكلم أبداً.

في عام 1819، تقدمت امرأة عجوز، وهي زوجة سيمون الإسكافي، وطلبت مالاً من أجل أن تروي قصة تعرفها. ووفقاً لها، قام شوميت بمساعدة سايمون وهيبير بإخراج الصبي من سجن المعبد واستبداله بطفل مريض. ألقي القبض على هيبير وشوميت بتهمة «المساعدة في إعادة تأسيس الملكية»؛ وتمّ اتهامهم بعبارة غريبة: «... تسهيل هروب ولي العهد».

في ليلة 8 حزيران 1795 توفي الصبي. قام الدكتور بالاتان، وكان طبيب الحي، بتشريح الجثة على طاولة المطبخ في غرفة الانتظار في السجن. وعندما لم يكن هناك أي شخص ينتبه، قام بلف قلب الطفل في منديل ثم أدخله إلى جيبه، قبل أن يخيط الجثة. سيكون هذا القلب محور قصة يلفّها الغموض والعاطفة. احتفظ به الطبيب في إناء من الكحول، لكنه لم ينتبه إلى أن السائل قد تبخر وأن القلب جف. وسرق مساعده، الذي توفي بعد فترة وجيزة، الإناء ولكن أرملته أعادته إلى الدكتور بالاتان. بعد سنوات، قدمه الطبيب إلى الملك الذي عاد إلى الحكم وكان عم الطفل الميت، وهو لويس الثامن عشر، لكن الملك رفض استلامه. ثم قدمه الدكتور بالاتان ليكون تحت الحراسة الآمنة لرئيس أساقفة باريس. خلال ثورة عام 1830، نُهِبَ قصر رئيس الأساقفة، وحاول أحد الموالين للملكية ويدعى ليسكروا، أن يخبئه، لكن تمّ القبض عليه من قبل أحد أفراد الحرس الوطني الذي ضربه بقسوة. تحطم الوعاء الزجاجي الذي كان يحمل فيه القلب على الرصيف لكن القلب لم يتضرر بشظايا الزجاج. تمّ نقله إلى كاتدرائية سان ديني، موقع دفن الملوك الفرنسيين. بعدها بدأ عدد من المحتالين باغتنام الفرصة، ادعى أربعون شخصاً أنهم لويس شارل دي بوربون. حُبِسَ معظمهم بتهمة الاحتيال.

أما ذلك الطفل الصغير المسكين الذي مات، فكان في الواقع هو

الملك، وقد حملت الثورة عار استشهاد هذا الطفل لأنها كانت ترتعد من فكرة أنه يمكن أن يصبح ملكاً مرة أخرى.

مات الطفل، ذلك الصبي الصغير الذي كان يهمس مع نفسه: «Toujours seul - كنت دائماً بمفردي، بينما كانت والدتي في البرج الآخر». طفل لم يُخبره أحد أبداً بأن أمه قد أعدمت.

وبعد ذلك...

انتهى عهد الإرهاب مع موت روبسبيير، ذلك الإرهاب الذي لا يمكن أن يغتفر. لم يكن روبسبيير وحده مسؤولاً عن التجاوزات التي ارتكبت باسم الفضيلة والمثالية. كان هناك، أولاً وقبل كل شيء، ملك دفع ثمن إفلاس مملكته أخلاقياً واقتصادياً. كان تقلبه ما بين الحظ وشخصيته التي تتسم بعيوب قاتلة قد تخطّت شخصيات إحدى المآسي التي ألفها الكاتب رابيليه[53]، ووصلت شخصيته إلى الحضيض مع تردده عندما واجهه غوغاء الشارع المندفعون. وقد رفض، بسبب شخصيته الضعيفة، التضحية بالقليل من أجل إنقاذ الكل، وبالتالي تسبّب في حدوث المأساة. وبسببه، سالت الكثير من الدماء. ولهذا، لم يغفر له الفرنسيون أبداً.

وكان هناك الثوار. منهم جون بول مارا، أحد الذين نبذهم التاريخ، وكان يحفزه اعتقاد وطني بأن الدم فقط يمكن أن يطهّر الواقع، وقد خلق طبقة جديدة من المواطنين - أبناء الكومونة الشعبية. وهناك دانتون، الطائش «و» الطموح بشكل متطرف، الذي برّر أعمال القتل التي قام بها عند حاجته إلى دعم ثورة هشة. وبعبارة واحدة حثّ أمة بكاملها على محو عار الهزيمة فقط لتقع ضحية لشخص حقير وطموح وغيور. وهناك سان-جوست، رئيس ملائكة المقصلة الغامض

53- كاتب فرنسي 1494-1553. المترجم.

والهادئ، الذي كان يرغب في ملء المقابر وليس السجون. وقد تحقق ما كان يتمنى. وأخيراً هناك روبسبيير، الذي برّر مكره مسترشداً بفضيلة بعض الكائنات الأسمى الغامضة، وبعض المثل العليا. على العموم كان إرهابه أقل كفاءة وفعالية بالمطلق من ذلك الذي تمارسه أكثر الحكومات الحديثة.

كتبت الثورة الفرنسية صفحة النهاية لعصر البنية الملكية القروسطية في أوروبا. وبقيت آثارها ماثلة على شكل رموز في كل ثورة حدثت لاحقاً. فقد اخترعت تطهير طبقة كاملة من المجتمع. وأوجدت المحاكم الشعبية والمحاكمات بدون دفاع، وعمليات الإعدام بدون محاكمة[54] وجميع الأجهزة الأخرى التي تشكل ما نسميه نظاماً استبدادياً. كان هناك أيضاً العديد من الجوانب الإيجابية. فقد أنجزت لجنة السلامة العامة وظيفتها. فقد أدى التجنيد الإلزامي الذي أدخله لازار كارنو[55] إلى تأسيس جيش من مليون رجل، وحوّله إلى آلة قتالية متمكنة، وقام بإنشاء أول صناعة للأسلحة الحديثة تمكنت من إنتاج أعداد كبيرة من البنادق. رفع سان-جوست من معنويات جيش الراين وتمكن من هزيمة البروسيين والنمساويين. هذه الانتصارات أنقذت الجمهورية الشابة وجعلت أقوى الممالك الأوروبية على حافة خطر الانهيار مثل بيت من ورق. ولدت جمهوريات جديدة من رحم هذا الارتباك. لقد عجلّت الثورة في حدوث أول نزاع عالمي حقيقي، وهي حروب نابليون، التي شاركت فيها الجيوش الضخمة للقوى الأوروبية الكبرى، والتي مهّدت الطريق للهيمنة البريطانية على بحار العالم.

يميل التاريخ إلى انتقاد جان بول مارا، ليتغاضى عن سان-جوست، ويضفي صفات مثالية على دانتون القذر أعلى من النزيه «روبسبيير». لقد تعوّد أن يقول: «لقد قدمت لي الجنة شغفاً بالحرية، ومن واجبي أن أرسم

54- تسببت أعمال الإرهاب بإزهاق أرواح 594.16 شخصاً.

55- سياسي ومهندس وصاحب دور عسكري وعضو في المؤتمر الوطني. المترجم.

للشعب بدم قلبي الطريق إلى السعادة والحرية». وبخلق عهد الإرهاب أراد أن يخلق عهد الفضيلة، وتحقيق السعادة من خلال العنف. وبينما كان الملك منزعجاً من فكرة التسبب في إراقة الدماء، سار روبسبيير قدماً وبجرأة إلى الأمام. إلى أن جاء اليوم الذي تمرد فيه عليه بعض أولئك الذين روّعهم. وبذلك أثبت أنه على مرّ العصور لا يستطيع أن يتسامح مع الكثير من التدخل في روتين وجوده اليومي.

واحداً تلو الآخر وقع الثوار الفرنسيون العظماء ضحية لغرورهم وعندما ارتفعوا عالياً، قُطِعت رؤوسهم.

في النهاية، «فإن الثورة تأكل أبناءها»[56].

فترة فاصلة

1809–1794

استمرت الجمهورية الفرنسية الأولى سبع سنوات. عاد النواب إلى هوايتهم المفضلة، وهي المشاحنات بعد تخلصهم من روبسبيير وعهد الإرهاب الكبير. في عام 1799، أُخْمِدت شعلة الثورة بنفحة من البارود من قبل ضابط مدفعية عبقري شاب، هو الجنرال نابليون بونابرت.

كانت مصالح نابليون معارضة تماماً لمصالح الثوار. لم يكن مهتماً بالصالح العام، لكنه أثبت أنه ديكتاتور مصاب بجنون العظمة لا يهتم سوى بسلطته الشخصية. كان يقول «السلطة هي عشيقتي، لقد بذلت قصارى جهدي للظفر بها ولن أسمح لأي شخص بأخذها مني». ولهذا الغرض، استخدم كل الوسائل لتحقيق ذلك؛ سحق معارضته السياسية. تعامل مع الناجين من الفترة الثورية من خلال نفيهم إلى الريف. لقد جعل عرفاء الجيش ملوكاً والملوك منبوذين. قام بإصلاحات مصممة

56 العبارة الأصلية قالها الثوري الفرنسي بيار فيكتوريان غيروندن، وهو من اليعاقبة تمّ إعدامه بالمقصلة في 1793: «الثورة، مثل زحل، تأكل أطفالها».

خصيصاً لتشديد قبضته القمعية، أولاً على فرنسا، ثم عبر قارة أوروبا بأكملها. حتى إنه وظف الدين لخدمة مآربه، وقد أعلن بشكل قاطع: «لا يمكن أن يوجد المجتمع دون وجود عدم مساواة، وبالتالي نحتاج إلى دين حتى نتمكن من القول: «إنها إرادة الله». ووفقاً لتعليماته، كُتِب دستور جديد، لدعم القيم الثورية مثل الأخوة والمساواة. أساليبه القمعية البوليسية تجاهلت عملياً المبدأ الثالث لأسلافه الثوريين، الحرية.

استمرت العديد من إصلاحاته الاجتماعية على مرّ القرون. مما لا شك فيه أن أعظم إنجازاته هو القانون المدني المدوّن الذي أصبح يُعرف باسم قانون نابليون والذي ما زال قيد الاستخدام حتى اليوم. وقد وضع بلده على أساس مالي متين من خلال إنشاء بنك فرنسا، وإنشاء نظام ضريبي عادل. جاب سفراؤه الثقافيون العالم (وسرقوا الكنوز المعروضة اليوم في متحف اللوفر). حققت سنواته الأولى في السلطة نجاحاً باهراً. هذا الانتصار، وتزلف الجماهير له، أسكرت رأسه. لقد كان شاباً صغيراً للغاية، وطموحاً للغاية، وكان مقتنعاً جداً بدوره الفريد في التاريخ ومقتنعاً بالنجاحات التي حققها. كانت فرنسا ضيقة للغاية بالنسبة لطموحه؛ وسعى ليصبح الحاكم الفريد لأوروبا المتحدة. وهكذا، سحق كل جيوش أوروبا في مناورة استراتيجية رائعة الواحدة تلو الأخرى. في أقل من عشر سنوات، جعل ذلك الكورسيكي المفلس من نفسه على قدم المساواة مع آل هابسبورغ أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة الذين كانوا يحكمون منذ (ألف) سنة تقريباً وقياصرة روسيا.

إن الخطر الذي شكّلته طموحات نابليون الواضحة تجاه المزيد من التوسع - حتى إنه حلم بإقامة إمبراطورية عالمية جديدة قائمة على ضمّ فرنسا لمقاطعة لويزيانا - ومهاراته العسكرية التي لا جدال فيها، أديا إلى قيام الحرب. في 2 كانون الأول 1805، تعرض جيش نمساوي روسي كانت قيادته غير كفوءة لهزيمة ساحقة في أوسترليتز. في ذروة مجده العسكري، كان لا يمكن لأي جنرال أن يضاهي عبقريته ولا تجرؤ أي

قوة على تحدي قوة جيوشه. استسلم الجنرالات على مرأى من عينيه، انحنى الأباطرة والملوك أمامه. حتى إنه أجبر حاكم هابسبورغ على تفكيك الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي كان يبلغ عمرها 844 عاماً. ومن أجل كسر الوحدة الألمانية، كانت إماراتا فورتيمبرغ وبافاريا قد ارتقتا إلى ممالك بنعمة نابليون. وعندما كتب معاهدة السلام لعام 1806 أملى بنداً آخر: ولحماية جناحه في منطقة غاليا كيسالبينا، قام نابليون بتسليم ملك بافاريا مقاطعة نمساوية، وهي التيرول.

بدا نابليون إمبراطوراً لا يقهر. ومع ذلك، وهو في ذروة مجده برز له تحدٍّ خطيرٌ من مكان غير متوقع. لقد كانت حادثة لا تكاد تُذكر، لكن نابليون ارتكب الخطيئة الكبرى حين صنع شهيداً وجعل ألمانيا تتوحد ضده.